في روضة القرآن

القرآن والإنسان

فضيلة الشيخ
محمد الراوي

الناشر
المكتبة الاكاديمية
٢٠٠٩

حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٩م – ١٤٣٠هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر :

المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والمدفوع ٩,٩٧٣,٨٠٠ جنيه مصرى

١٢١ شارع التحرير – الدقى – الجيزة

القاهرة – جمهورية مصر العربية

تليفون : ٣٧٤٨٥٢٨٢-٣٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس : ٣٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

الرحمن. علم القرآن.
خـــلق الإنسان

الرَّحمن. علَّم القُرآن.

خلق الإنسان

ما دلالة أن يأتيَ الحديث عن خَلْق الإنسان، وتعليمه البيان مسبوقاً بالحديث عن القرآن، مع أنَّ المراد بـ « الإنسان » هو الجنس.

وهو سابقٌ بأجيالٍ على تنزيلِ القرآن.

إذْ القرآن قد نُزِّل على خاتم الرسلِ محمدٍ ﷺ ؟

وَخَلْق الإنسان قد بُدِئَ بخَلْقِ آدم ـ أبي البشر عليه السلام.

وآياتُ الرحمن ـ كما نرى ـ قد جاء ترتيبُها أَوَّلاً بـ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ ﴾[1] في آيةٍ، لم يأت بعدها ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ ﴾[2]، وإنَّما جاء بعدها ﴿ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ ﴾[3]

فجاء تعليمُ القرآن موصولاً بالرحمن.

وجاء خَلْقُ الإنسان بعد تعليم القرآن.

أَلاَ يُعطينا ذلك أنَّ القرآن الكريم ـ بحقائقه ـ سابقٌ، ليس بمخلوقٍ ولا مسبوقٍ ؟ فهو كلامُ الله، المشتمل على صفات الخَالق، وحِكمةِ الخَلْقِ، وغايةِ الوجود.

وهذه الحقائق ثابتةٌ قبل خَلْقِ الإنسان.

---

(1) الرحمن: ١.

(2) الرحمن: ٣.

(3) الرحمن: ٢.

وقد نُزِّلَ القرآنُ بها ـ وهو الكتابُ المهيمنُ، المحفوظ بحِفْظِ الله.

ليظلَّ الخطابُ بهذه الحقائق موصولاً بالإنسان، يرى فيه من سُنَنِ الله ما كان وما سيكون، إلى آخر الزمان، دون تبديل أو تحويل.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1]

هكذا ـ بضمير العظمة المتكرر ـ يُخبرنا الله بتنزيل القرآن وحِفْظِهِ.

فلا غَرْوَ أن يكون القرآنُ موصولاً بالرحمن، متصلاً بالإنسان.

يعتصم به، فينعم بفضلِ الله ورحمته.

يُذْكَرُ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أوَّلاً، ثم يُذْكَرُ السَّببُ الواصل بينه وبين خَلْقِه، ثم يُذْكَرُ الإنسان، الذي من أجله أُنزِلَ وبقيَ موصولاً على مَرِّ الزمان.

وجاء الرسلُ ـ جميعاً ـ مُبشرين بحقائقه ومُنذرين، إلى أنْ خُتمت رسالتهم بنُورٍ وكتابٍ مبين، تُعرَفُ به رسالاتُ الرسلِ جميعاً، دون تفرقة بين رسولٍ ورسول.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١ ﴾.[2]

---

(1) الحجر: ٩.

(2) آل عمران: ٨١

من هُنا نستطيع أن نُدرك التناسب بين الآيات على هذا الترتيب:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١
عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢
خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣
عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾[1]

وأن نعرف شأنَ القرآن بالنسبة للإنسان.

وأنه الحَبْلُ الممتدُّ بينه وبين الرحمن.

* * *

(1) الرحمن: ١ ـ ٤.

حديث القرآن والإنســان

حديث القرآن والإنسان

القرآن الكريم أُنزِلَ وحُفِظَ من أجل الإنسان.

فحديثه عن الإنسان - خَلْقِه ورزْقِه، وحياتِهِ ومَوْتِه - حديثٌ هَادِفٌ يُرَادُ به الإنسان في ذاتِ نفسه، وفي صِلَته بغيره.

فهو لمصلحته - وليس مُجَرد إخبار بما كان وما سيكون من أمره فإنَّ الإخبارَ - عن عِزَّةِ الله وقُدرته وعلمه - بلاغٌ للإنسان؛ لتبصرته بما يجب أن يكون عليه من معرفةِ ربِّه، والاهتداءِ بِهَدْيِه.

فالقرآنُ - في جميع آياته - هُدَىً للناس، وإن بَدَا أنَّ ما يخص الإنسان آيات محدودة في القرآن.

فالإنسان مَلحوظ - لا في الآيات التي تَذْكُره فحسب - بل في جميع آيات القرآن؛ باعتبار أنه المخاطَب والمراد بما يتحدَّث عنه، أو يوحى به.

ومَن أحسن التدبر أَيْقَنَ أنَّ له - في كُلِّ آيةٍ من آياتِ القرآن - تبصرة وتذكرة وعِبرة.

والإنسانُ وثيقُ الصِّلة بالكَوْنِ الذي يُحيط به، ويعيشُ على أرضه.

وحديث القرآن عن آيات الله - في الأرض وفي السماوات - فَيَّاضٌ بالعطاء لأُولي الألباب، الذين يذكرون الله ويتفكَّرون.

وبذا لا يُعزَلُ الإنسان عن آيات الله، في أيِّ شأنٍ وفي أيِّ حالٍ كان.

حتى وإنْ أعرضَ عن هذا الذِّكرِ وَأَدْبَر.

فإنَّ إعراضَه وإدبارَه لا يُخرجه عمَّا يُحيط به من آيات الله، في نفسه، وفي الآفاق مِن حوله، وهي تتَّسق مع آيات الذِّكر الحكيم في مخاطبة الإنسان وتبصرته.

فالْمُعْرِضون أنَّى يُؤفَكون ؟ وأنَّى يُصْرَفون ؟

فأيُّ إعراضٍ يمكن أن يكون عن أرضٍ وسماءٍ، وهواءٍ وماءٍ ؟

والأرض تُقِلهُ، والسماءُ تُظِلهُ، وله من الماء والهواء، والزروع والثمار، عطاءٌ من الله أي عطاء، بغيره لا تقوم له حياة.

والقرآنُ - وهو يخبر عمَّا يكون من بعث وحساب وجزاء - يخاطب المنكرين بواقعٍ لا ينفكُّ عنهم ولا يغيب.

وفي الخطاب تبصرةٌ وذكرى لكُلِّ عبدٍ مُنيب.

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.[1]

هذا ما قاله المنكرون.

فَبِمَ أَمَرَ الله أن يُخَاطَبُوا به ؟

أمر أن يُخَاطَبُوا بآياتٍ - لا تغيبُ عنهم، ولا تخفى دلالتُها في أنفسهم، وفي الآفاق من حولهم.

---

(1) المؤمنون: ٨١ - ٨٣.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.[1]

بَلْ ربَّما رأينا القرآنَ يُخاطب الإنسان بآيات الله في نفسه؛ ليعرف قُدرةَ الله في خَلْقه وبَعثه.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾.[2]

هذا الترابط بين فطرة الإنسان وفطرة الكون، ليس القرآن دخيلاً عليه، أو بعيداً عنه.

وجميعُ آياته تدعو إلى التمسك بالفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها.

ليتسق الإنسان مع فطرة كل شيء في التسبيح بحمد ربِّه.

ويستجيب - بإرادته - لما يُدعَى إليه، من صِدْقِ الوفاء لِمَا فُطِر عليه، دون عِوَجٍ أو مَيْلٍ. وهو يتعلَّم - من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس - ما يدعوه إلى أن يُسْلِمَ وجهه لربِّه.

---

(1) المؤمنون: ٨٤ - ٨٩.

(2) مريم: ٦٦، ٦٧.

﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.[1]

ويتلو القرآنَ فلا يرى القرآنَ قد أخذه بعيداً عمَّا يرى دلالته في نفسه وفي الآفاقِ، من وضوحِ الحقِّ، وبيانِ السَّبيل.

❊ ❊ ❊

(1) آل عمران: ٨٣.

وفـــاق
لا اختـــلاف فيه

وِفَاقٌ

لا اختلافَ فيه

وِفَاقٌ لا اختلافَ فيه بين ما يُوحي الكونُ به، وما يدعو القرآنُ إليه.

نظام الكون ـ كما نرى ـ دقيقٌ ومُعَبِّرٌ عن غاية.

والإنسان يتعلَّم من الكون دِقَّةَ النظام، وتحقيقَ الغاية.

وكُلَّما تعمَّق الإنسان في جزئيات هذا الكون وما اشتمل عليه، أفاد علماً، وازداد فضلاً.

ونرى القرآن الكريم يُخاطِب الإنسان ـ من خلال حديثه عن آيات الله في النفس وفي الكون ـ لتكون التذكرة به قائمة مع الإنسان حيث كان.

فإذا قرأنا هذه الآيات من سورة "الأعراف":

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.[1]

---

(1) الأعراف: ٥٤ ـ ٥٦.

نستطيع أن نقف على هذه الحقائق، التي تُرينا مَدَى التوافق بين ما يُوحي به الكونُ، وما يدعو إليه القرآن الكريم.

وتلك هي الحقائق:

الحقيقة الأولى:

الحديث عن الربوبية في قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

فربُّكم - أيُّها الناس - وَرَبُّ الكونِ كُلِّه وَاحِدٌ، وهو ربُّ كُلِّ شيء.

هو الذي خلقكم، والذين من قبلكم.

وهو الذي جعل لكم الأرضَ فِراشاً، والسماءَ بناءً.

ولا تفاوُت أو تباين بين خَلْقٍ وخَلْقٍ.

بل يُرى التعاون والتناسب والتوافق.

ولا يَخفى ما في قوله: ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من فائدةٍ في تعليم الإنسان، وهو قادرٌ - سبحانه - أن يخلقها في لحظةٍ واحدة.

الحقيقة الثانية:

أنَّ هذه الربوبيَّة تُدبر هذا الكون بصورة مرئيةٍ للإنسان، نافعةٍ له.

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾.

ولا أحدَ - في أيِّ مكانٍ كان - يغيب عنه تقلُّبُ الليل والنهار، وما في ذلك من عِبرةٍ لأولي الأبصار.

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ أي: يجعل الليلَ كالغشاء للنهار، فيغطي ـ بظُلمته ـ ضياءه، كما يُغشي الليلَ بالنهارِ، فيذهب ظلمته.

﴿ يَطْلُبُهُۥ ﴾ طَلَباً ﴿ حَثِيثًا ﴾ مُسرِعاً، لا يفتُرُ عنه بحال.

وفي ذلك ـ مع التذكير للإنسان ـ تعليمٌ للإنسان، أيُّ تعليمٍ، بأنَّ كُلَّ شيء مرتبط بحكمته، موقوتٌ بوقته، لا يغيب عنه ولا يزيد.

الحقيقة الثالثة:

أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ ـ وهي ما هي في عِظَمِ شأنِها، وبُعْدِ مكانها وقوَّتها ـ مُسخَّرةٌ بأمر ربِّها.

وفي ذلك إيحاء للإنسان أن لا يتمردَّ على ما يُؤمر به، أو يُدْعَى إليه.

﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾.

وفي ذلك منفعة للإنسان، أي منفعة، وتعليم له أن يتجاوَبَ مع فطرة الكون في القيام بما خُلِقَ له ـ من عبادة ربِّه ـ طائعاً غير مُكره.

الحقيقة الرابعة:

هذا الشمول في قوله: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ حقيقةٌ لا يَنِدُّ عنها شيءٌ.

له وحده ـ لا لأحدٍ غيره ـ الخَلْقُ والأمرُ.

وإليه وحده ـ سبحانه ـ لا إلى أحدٍ سواه ـ المرجعُ والمصير.

وهذه الحقيقة تُعلِّم الإنسان ـ في جميع شئونه ـ أن يكون عبداً لله، لا لأحدٍ سواه؛ إذْ لا ملجأ منه إلاَّ إليه.

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[1] فَأَيْنَ الْمَفَرُّ ؟

الحقيقة الخامسة:

ما تضمَّنه قولُه: ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

أي: كثُرت بركته واتَّسعت.

وهذه الحقيقة مُوحيةٌ للإنسان أن يُقدِّرَ ذلك حقَّ قَدْرِه

وأن يعلمَ أنه مغمورٌ بفيضٍ من نِعَمِهِ وَفَضْلِهِ، في أيِّ حال كان، في سرَّاء أو ضرَّاء، أو شدَّةٍ أو رَخَاء؛ حتى يكون - في جميع أمره - راضياً عن ربِّه، تعاظَمَ شأنُه، وتعالى قَدْره، ولا إله غيره ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

الحقيقة السادسة:

التوجُّه بالأمر إلى عباده، في قوله: ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

أَمَرَهم - سبحانه - بالدُّعاء. وقيَّد ذلك بكون الدَّاعي متضرِّعاً بدعائه، مُخفياً له.

والتَّضرُّع: من الضَّراعة، وهي الذِّلَّة، والخشوع، والاستكانة.

والخُفْيَة: الإسرار بها؛ فذلك أدعَى للإخلاص والبُعْدِ عن الرِّياء.

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

أي: الْمُجَاوِزِينَ لما أُمروا به، في الدعاء وفي كل شيء. فمَن جاوَزَ ما

---

(1) الزمر: ٦٧.

أمره الله به ـ في شيء من الأشياء ـ فقد اعتدى، والله لا يُحبُّ المعتدين.

الحقيقة السابعة:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

بأيِّ وجهٍ من الوجوه، قليلاً كان أو كثيراً، ماديًّا كان الإفسادُ أو معنوياً؛ فإن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد أصلح لنا الأرضَ من كل وجهٍ، ونَهَانَا أن نُفسدَ فيها بعد إصلاح، وأرانا كيف نُصلحُ ولا نُفسد، ونُحسنُ ولا نُسيء، بما أرسل من رسولٍ، وأنزل من كتاب.

فإذا ظهر في الأرضِ فسادٌ فهو بما كسبت أيدي الناس.

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾.[1]

الحقيقة الثامنة:

ما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ مِمَّا يجبُ أن يكون عليه الإنسان، من الخوف والرجاء؛ ليُحسنَ ولا يُسيء ﴿ إِن رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

والله قد كتب الإحسان على كل شيء، ولم يستثن من ذلك من شيء؛ لما يتضمَّنه الإحسانُ من تجرُّدٍ، ومراقبةٍ، وإخلاصٍ، ومن تجويدٍ وإتقان.

وقد سُئِلَ الرسول ﷺ عنه، في حديث جبريل عليه السلام فقال: « الإحسانُ

---

(1) فاطر: ٤٥.

أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[1]

واشتمال العمل على الأمرين ـ الإخلاص، والإتقان ـ هو السبيل لما يُرجَى من حُسن المثوبة والجزاء.

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝٣٠ ﴾.[2]

وهكذا يُخاطَبُ الإنسانُ.

ويُؤْمَر بالعبادة، والدعاء، والإصلاح، والإحسان.

وَيُنْهَى عن الفساد، والاعتداء، والإساءة.

من خلال الحديثِ عن الكون، والإيحاء بدلالته

للإفادة منه. لا في معاش الإنسان ومتاعه فحسب، بل للإفادة منه في اعتقاده واستقامته، وأداء أمانته التي حَملها.

ترى ذلك في أخطر قضايا الاعتقاد شأناً، وهو (البعث) بعثُ الموتى من قبورهم.

ترى الدليل على تحقُّق وقوعه يُساقُ في فطرةٍ هاديةٍ ممّا يقع في حياة الإنسان، دونَ تكلُّفٍ أو عُسر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ

---

(1) مسلم: كتاب الإيمان.

(2) الكهف: ٣٠.

﴿ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾.[1]

يُذَكِّرُ الناس بهذه الحقيقة عن طريقِ ما يقع ـ دائماً ـ في حياتهم، من إنزال الماء، وإحياء الأرض بعد موتها.

فكما نُخْرِجُ من الأرض ما كان مَطْمُوراً فيها من حَبٍّ، بإنزالنا الماء، فنُحيي الأرض بعد موتها. كذلك نُخْرِجُ الموتى من قبورهم بعد أن غُيِّبُوا في باطن الأرض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾[2]

وهكذا نرى الوِفَاقَ بين ما يُوحي الكونُ به، وما يدعو القرآنُ إليه من اعتقادٍ، أو استقامةٍ، أو عمل.

والإنسانُ المستبصرُ يفيد من الكون آياتٍ وآياتٍ وآياتٍ، تُحقق له ـ إنْ هو استبصر بها ـ أَبَرَّ الخِصال، وأكرمَ الصفات، في سَعيه وعمله.

وهو يرى كُلَّ شيءٍ يؤدِّي ما خُلق له، في انتظامٍ لا تفاوت ولا اختلاف فيه.

يرى الشمس تطلع عليه، ثم تغيب في وقت محدَّد، دون سبقٍ أو تأخير، فيأتيه الليلُ والنهارُ ـ لسُكناه ومعاشه ـ آية من آيات ربِّه، مُبصرة مُذَكِّرة، يتعلَّم منها ما يجب أن يكون عليه في أداء عمله، وتحقيق غايته لا خُلفَ في موعد..

---

(1) الأعراف: ٥٧.

(2) فصلت: ٣٩.

لا خَلَلَ في نظام..

لا عِوَجَ ولا مَيْلَ في اتِّباع صراطٍ مستقيم.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.[1]

هذه الحركة الكونية الحية المتجددة، التي تتفاعل في حياة الإنسان دون توقُّف أو انقطاع، هي زادٌ متَّصل للإنسان، أيّ زاد.

لا في معاشه ومتاعه فحسب، بل في إيمانه واستقامته ويقينه.

وأنت تراها تُساق إليك في آيات تُتْلَى، تتسق مع كل ما تراه من آيات ربِّك، في الآفاق وفي الأنفس.

فلا ينعزل الإنسانُ بما يقرأُ من قرآن، بل يَسْبَحُ بنُوره في أجواء الزمان والمكان.

وهو إنْ ثَابَرَ على تلاوة القرآن فحفظه، لم تقع عينُه على شيء في هذا الكون إلاَّ وتذكَّر به ما يدلُّ عليه في القرآن.

إنَّ حركةَ الكون ـ لدى أُولي الألباب ـ داعيةٌ إلى ما دعى إليه القرآن وبصَّر وأنذر.

---

(1) يس: ٣٧ ـ ٤٠.

وما أجملَ أن ترى بلاغةَ القرآن في آياته مقروءة في آفاق الكون وصفحاته.

تقرأ في القرآن:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾.[1]

فترى ذلك في صفحةِ الكونِ، وأنت تستجيبُ لأمر ربِّك.

يتنفَّس الصبحُ، فترى فيه دلالة ما قرأتَ في القرآن عن الفَجْرِ ومن يشهده. يخبرك القرآنُ، فترى في الواقع خَبَرَهُ.

فلا ينفك الإنسان عن حديثٍ إليه، من فجرِ يومه إلى غَسَقِ ليله.

حديثٌ متواصل، تقشعر منه جلودٌ، وتؤوبُ نفوس.

ويجد الإنسانُ مُتعته وخشيته، وزينته وحقيقته، في اتِّساقٍ فطري، لا تعارُضَ فيه ولا تفاوت، ولا اختلافَ ولا تناقُض.

وذلك حين تُعرَفُ مقاصدُ القرآن، وتُؤخَذ هدايته.

وحين تُعرَف لغةُ الكون، وتُدرَك حقيقته.

عندئذٍ تتحقَّقُ الغايةُ التي من أجلها خُلِقَ الكونُ، وَخُلِقَ الإنسان.

ويهتدي الإنسانُ إلى الصراط المستقيم، الذي من أجله أُرْسِلَ الرسولُ، وحُفِظَ القرآن.

وتقوم بالإنسان ـ وهو يتفاعل مع الكون ـ حضارةٌ كاملةٌ، تُصان

---

(1) الإسراء: ٧٨.

فيها الكرامة، وتُحفظ الحقوق، وتُؤدَّى الواجبات.

ولن يكون ذلك إلاَّ باستلهام ما في الكون من دلالات، هي أعظمُ وأبقى من أن تكونَ لمجرَّدِ زينة ذاهبةٍ أو متاع.

وتدبُّر ما في القرآن من آيات هي لمصلحة الإنسان في جميع مراحله، في متاعه ومعاشه، وعاقبته ومصيره؛ حتى لا يُوْخَذ الإنسان بظاهر الحياة الدنيا، وينسى عاقبتها، أو يُشْغَلَ بزينتها عن حقيقتها وغايتها.

من هُنا كان اتِّساقُ القرآن والكون في مخاطبة الإنسان لغايةٍ واحدة، هي مصلحة الإنسان في أن يُحقق ما خُلق له في سَعيه وعمله، وفي علاقته بغيره.

وذلك حين يعرف حكمةَ خَلْقِه، وغايةَ وجوده.

ومن تدبَّرَ فأحسن التدبر، عَلِمَ أنَّ هذه الغاية يُجملها قولُ ربِّه:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾.[1]

وذلك ما يُوحي الكونُ به، وكُلُّ شيء فيه مُسبِّحٌ بحمد ربِّه.

وما يدعو القرآنُ إليه، وهو يهدي ـ في كل شأن ـ للتي هي أقوم.

وهذه الغاية ـ والعملُ لها ـ هي التي تُحقق الضوابط التي يُحسن الإنسان بها ولا يُسئ، ويُصلح ولا يُفسد.

وهي التي يُصَانُ بها الفهم عن العبث ،والاعتقاد عن الباطل.

---

(1) الذاريات: ٥٦، ٥٧.

والعَبَثُ يكون عندما يقفُ الإنسانُ عند دُنياه، ولا يزيد.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾.[1]

والباطلُ اعتقادٌ فاسدٌ، يُنسي صاحبَه يومَ الحساب، ويقُودُ إلى سُوء العاقبةِ والمصير.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾.[2]

وكلاهُما ـ العَبَثُ والباطل ـ يلازمهما الهوى الْمُضِلُّ، والأنانية الجَشِعَة، والكِبْرُ الأَبْلَه، والظُّلمُ المفسِد.

يلازمهما ما يُفسد علاقة الإنسان بأخيه، وقد قطعت علاقته بربِّه.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.[3]

وهؤلاء لم يأخذوا من الكون دلالته وهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وإنما أخذوا متاعَه وزينتَه.

ودلالة الكون مُعبِّرة عن خالقٍ يُعْبَدُ ولا يُجْحَد. مُعَبِّرة عن رحمةٍ واسعة، ونعمة سابغة ظاهرة وباطنة.

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

---

(1) المؤمنون: ١١٥.

(2) ص: ٢٧.

(3) المؤمنون: ٧٤.

يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾.[1]

فلْنَر القرآن في آيات الله، في الآفاق وفي الأنفس.

لنُوقِنَ ونعمل بما نزل من الحق.

ولنتدبر أمرَ الكون في آياتٍ بيِّناتٍ من الهُدى والفُرقان.

لنُفَرِّقَ بين الحق والباطل، فنُحسن - في كل شيء - ولا نُسئ.

وسنرى القرآنَ معنا إذا تنفَّس الصُّبْحَ، أو عَسْعَسَ الليل.

سنرى القرآن يعلّمنا كيف نُسبِّحُ بحمد الله حين نُصبح وحين نُمسي

سنراه معنا إذا أنزل الله لنا من السماء ماءً، وأخرج به ما شاء من الثمرات رزقاً لنَا.

يُعلّمنا - ونحن نرى آثارَ رحمةِ الله بنا - ماذا نقولُ وماذا نعملُ؛ حتى لا تتحوَّل نعمةُ الله في أيدينا - بكُفرهَا - إلى نِقَمٍ علينا.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.[2]

سنرى القرآن معنا - بهدايته - حيث كُنَّا.

إذا سِرْنَا في البَرِّ، أو ركبنا في البحر، أو صعدنا في الجوِّ.

سنراه معنا في ضِيقٍ أو سَعَةٍ، في سرَّاءَ أو ضَرَّاء، في شدَّةٍ أو رَخَاء.

---

(1) الروم: ٦، ٧.

(2) إبراهيم: ٧.

سنراه في شئوننا كلِّها، وفي أحداث حياتنا: إذا استقبلنا مولوداً، أو شيَّعْنَا مفقوداً.

سنراه - بهدايته - يعلِّمنا ما يجب أن نكون عليه في أَخَصِّ ما تُكنُّه صدورُنا، ومَا نُعْلِنه.

سنراه في هذا الكون إذا هَبَّت الرِّيحُ أو سَكَنَتْ.

سنراه في البحار، أو الجبال، أو السَّحاب.

سنراه في طَيْرٍ يطير في السماء، أو في سابحٍ يسبحُ في الماء.

سنراه في حديثِ نملةٍ، أو تدبيرِ نَحْلَةٍ.

سنراه بهدايته وعِبرته وموعظته.

نراه في الأنعام ونحن نُسقَى ممَّا في بُطُونِها من بين فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالصاً سائغاً للشاربين.

كما نراه في تقلُّبِ الليل والنهار.

نراه في ركعاتِ الساجدين، واستغفار المستغفرين بالأسحار.

فما من أَمْرٍ إلاَّ وللقرآن فيه كلمة.

وما من شأنٍ إلاَّ وله فيه تبصرةٌ وموعظةٌ.

وآياتُ الله - في الآفاق وفي الأنفس - دائمة الخطاب للإنسان بما يخاطبه به القرآن.

فلا ينفَكُّ الإنسان - أبداً - من حديثٍ إليه يُوقظه من غفلةٍ، ويحفظه من نسيان.

حديث نفسه إليه وهي تُخاطبه بما فيها من آيات يستبصر بها.

تُخاطبه دقّاتُ قلبه، وآياتُ سَمعه وبصره، وبُنيانُ جسده.

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (1)

لا ينفَكُّ الإنسان من مخاطبة الكون، لا لكي يعرف ربَّه معرفةَ شُعور وعاطفة، بل لكي يعرفه معرفةَ يقين وعمل، وسعي وحركة، واستقامة وخشية.

معرفة تُرَى نتائجها في جميع أمره.

معرفة تُستلهم من نظام الكون وتناسقه، والإفادة منه، في تعاونٍ لا تنافُرَ فيه، وتجاوبٍ لا خِلافَ معه.

لذا نرى القرآنَ كثيراً ما يخاطبنا من خلال حديثه عن الكون؛ ليظل الإنسانُ ـ دائماً ـ مُوقَظاً بالتذكرة، مُخَاطباً بالتبصرة.

وهو يرى الليلَ والنهار، والشمسَ والقمر، والأرضَ والسماء.

يرى كل ذلك ليس منفصلاً عن منفعته، أو معزولاً عن عطائه.

وإنما يراه بتأثيره وأثره، وعطائه ونفعه بإذن ربِّه.

فتكون التبصرة فطرية، لا تكلُّفَ فيها.

والموعظة حسنة، لا إساءة معها.

والدعوة إلى الله حكيمة، لا عُسْرَ في فَهمها وتقبُّلِها.

وذلك منهجُ القرآن في الدعوة إلى الله.

يُخاطبك بما هو قائمٌ فيك، أو مُتَّصِلٌ بك.

من نفسك، أو من الكون، الذي لك منه قرارٌ وبناءٌ، ورزقٌ وعطاءٌ، وخَلقٌ وحياة.

---

(1) الذاريات: ٢١.

وأنت فيه ـ بعد موتك ـ وديعةٌ مُسْتَرَدَّة حين يبعثُك الله.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.[1]

***

(1) غافر: ٦٤، ٦٥.

الإنســان
مخـلوق مسئول

الإنسان

مخلوقٌ مسئول

وفي المسئولية تكليفٌ، وتشريفٌ، وتكريم.

الإنسان قد خلقه الله..

وجعل من خَلْقِهِ تعريفاً بخَالِقِهِ.

وبُرهاناً على قُدرته وحكمته.

وقد شاء الله أن يتلقّى الإنسانُ عن الله ما يُحدِّدُ مسئولية، ويُبيِّنُ رسالته، بعد أن زوَّده بالأسباب التي تُعينه - في شتَّى المجالات - على النهوض بهذه المسئولية.

وجعل له - من التكريم والتفضيل - ما يُميِّزُه على كثيرٍ من خَلقه.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾.[1]

فهو مخلوقٌ مسئولٌ، وفي المسئولية تكليف من خَالقه.

وفي النهوض بما كُلِّفَ به وبُلِّغ تشريف، أيّ تشريف.

إنه ليس كَمًّا مُهْملاً - لا تُناطُ به واجبات، ولا تُحدَّد له حقوق - من حيث خَلْقه.

فإنْ تخلَّى عن مسئوليته، أو فرَّط فيها، فقد رضيَ لنفسه أن يكون

---

(1) الإسراء: ٧٠.

موضعَ مساءلة ومحاسبة؛ حيث فرَّط فيما تميَّز وكُرِّم وفُضِّل عليه.

إنه مسئولٌ متضامن مع غيره؛ لأنه اجتماعي بفطرته وطَبْعِه.

مسئولٌ عن الكلمة التي تُقال، والعملِ الذي يُعمَل.

بل مسئولٌ في نفسه عن النيَّة والقصد؛ لأنَّ الأعمال إنما تُوزَن عند الله بالنيَّات والمقاصد.

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى... »[1]

والذي يسأله عن ذلك ربُّه، وهو أعلمُ به ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[2]

وذلك أصلٌ أصيلٌ في النهوض بالمسئولية على نحوٍ مشروعٍ، يُحقِّق صلاحَ المجتمع، ويحفظ كرامته.

لذا كانت فريضة الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، مسئولية تضامنية، يقومُ بها الإنسانُ متضامناً مع غيره؛ ليسلم المجتمع كله من شُيوع الفاحشة والمنكر والبغي.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.[3]

لذا كان الإنسانُ ـ أوَّلاً ـ مسئولاً عن إصلاح نفسه.

ولا يُقْبَل منه ـ أبداً ـ أن يُعلِّقَ خطأه على غيره، بعد إعذارٍ وإنذار.

---

(1) البخاري: كتاب بدء الوحي.

(2) الملك: ١٤.

(3) آل عمران: ١٠٤.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.[1]

ومسئولية الإنسان عن نفسه ـ في صميمها ـ مسئوليته مع غيره، متعاوناً على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

إنه عضوٌ يؤدِّي وظيفته في جسدٍ واحد، يتداعى له سائرُ الأعضاء إنْ هو أُصيب بما قد يُلحق الضرر بغيره.

فسلامته سلامة له ولغيره.

هكذا شبَّه الرسول ﷺ أمرَنا بـ « الجسد الواحد »

كما شبَّه أمرنا جميعاً بالرَّاكبين في سفينة واحدة

« بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ».

قال الرسولُ ﷺ:

« فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا »[2]

ومن هنا يتضح لنا أمام مَنْ يكون الإنسان مسئولاً.

---

(1) فاطر: ١٨.

(2) البخاري: كتاب الشركة.

إنه مسئول أمام ضميره مسئولية أخلاقية تُوزَنُ عند الله بميزانٍ دقيق.

فمَن يعرف ربَّه يوقِنُ أنَّ ما يُغلق على أعين الناس، لا يُغْلَقُ على علم الله.

ولا يظنُّ ظَانٌّ أنَّ مسئولية الإنسان أمام ضميره شيء هَيِّنٌ أو يسير، بل إنَّه جَدُّ خطير.

إذا لم تُرَبِّ الأُمَّةُ أبناءها ليكونوا ذوي ضمائر حيَّة يقظة، فلن يتحقق لها ما ترجوه من أَمْنٍ، وما تنشده من استقرار.

فإنَّ الجريمة الْمُبَيَّتَة في نفس صاحبها لا يَئِدُها إلاَّ يقظةُ ضميره، وخشيته من ربِّه.

فمسئولية الإنسان أمام ضميره هي مسئولية المجتمع كله أَوَّلاً في تربية الإنسان على نحو يعرف ربَّه ويخشاه.

وفي تحقيق ذلك تتضافر أجهزةُ الدولة كلُّها ولا تتناقض، وتتوحَّد وسائلُها ولا تتنافر.

الوسائل: التعليمية.. والثقافية.. والاجتماعية.. والأمنية.

لأنَّ رصيدَ الأمة الحقيقي في إنسانها.

الإنسان الصالح تصلح به الأمور الفاسدة.

والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة.

ومن حَصَرَ الأممَ في الأخلاق لم يجانب الصواب.

فإنَّ الأُمَمَ الأخلاق ما بقيت فإن هُمُوا ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

والأخلاق ليست سَمتاً مظهرياً، وإنما هي عملٌ، وَجَدٌّ، وطُهْرٌ، وتعاونٌ، وبرٌّ.

هي حياة أمة ناهضة ترى حياتها في عِزَّتها، ومواتَها في الرُّكون إلى غيرِها.

فإذا قيل: « مسئولية الإنسان أمام ضميره » لم نُخْلِ الأمة من مسئوليتها.

فمسئوليتها أوَّلاً في إحياء هذا الضمير بشتَّى الوسائل، دونَ خَلَلٍ أو تقصير.

والأخلاق ليست فلسفة نظرية لا تُرَى حقيقتها في واقع.

إنها ضوابط وحدود، تراها في سلوك الإنسان: في البيت، وفي الشارع، وفي المدرسة والمصنع.

تراها ـ في كل شيء ـ فطرية لا تكلُّفَ فيها ولا عُسر.

بحيث تصبح عادة راسخة في مظهر الأمة وحقيقتها.

وتستطيع أن تحكم على أخلاق الفرد والأمة ـ في يُسْرٍ ـ من واقع عمليٍّ، لا من فلسفة نظرية.

خُذْ مثلاً الأخلاق في الشارع، وكيف يقع التعامل فيه.

كم يؤدِّي تجاوز ضوابط الأخلاق وحدودها فيه إلى وَيْلاتٍ وكوارث ؟

إنَّ الإساءة فيه مظهرٌ من مظاهر سُوء الأخلاق.

إذا كانت إشارة المرور "حمراء" فإنَّ قَطْعَ الإشارة ـ ولو كُنْتَ

وحدك ـ سُوء خُلق، قبل أن يكون مجرَّد مخالفة تُدفَع أو لا تُدفع.

إنَّ هذا التجاوز قد يؤدِّي إلى التجاوز في غيره.

سُوء خَلق؛ لأن صاحبه لم يلتزم بالضوابط والحدود التي تحفظه وتحفظ غيره.

وإذا رأينا غَيْرَنا يقف عند الإشارة الحمراء ولا يتحرك ـ ولو كان وحده ـ فذلك خُلُقٌ؛ لأنَّ صاحبه التزم بالضوابط والحدود.

ومن الخطأ الشائع أن نقصر الأخلاق على جانب في الحياة دون جانب.

ومن الخطيئة أن نخطئ في فَهْم ديننا، ولا نعرف قيمة الأخلاق فيه.

إنَّ أخلاق هذا الدِّين مستمدَّة من عقيدته.

وعقيدته ـ كما نعلم ـ فيها من الثبات والقوة والرسوخ ما يُعطي الأخلاقَ ـ نَفْسَها ـ رُوحَ الثبات والقوة والشمول.

فلا تقصر الأخلاق على جانب من الحياة دون جانب، بل هي ـ في كل تصرُّف ـ للإنسان صَغُرَ أو كَبُر.

وخِيار الناسِ أحسنهم أخلاقاً.

والأخلاق ليست سلعة تُباع وتُشتَرى.

إنها جوهر أصيل يثقُل به الميزان يوم القيامة.

وقد يُدرك الإنسان بحُسن خُلقه ما لا يُدرك بصيامٍ وقيام.

والأخلاق الراسخة تمنح صاحبَها رُوحَ التجرد من المنافع، والتخلص من الرِّياء الكاذب.

فلا ينهى الإنسانُ عن خُلقٍ ويأتيَ مثلَه.

كما لا يتَّخذ من دعوى الأخلاق سبيلاً للكسب الرخيص، واستغلال السُّذَّج والبسطاء.

وإنما تقوم الأخلاق الصادقة ـ في نفس صاحبها ـ مقام المجاهد في ميدان الشرف والبسالة، وهو يدافع عن غايةٍ راشدة.

يرفع سيفَه ويُخفضه؛ استجابةً لمبدأ..

ويُلقي بنفسه في أتُونِ معركة قد يجودُ فيها بنفسه؛ انتصاراً لإيمانه وخُلقه.

وكذلك الأخلاق، قد تدفعك إلى أن تبذل كُلَّ رخيص وغالٍ، ولا تستطيع أن تخرج عن حكمها أو تجاوز حدودها وضوابطها.

فمسئولية الإنسان أمام ضميره محاكمة لأخلاقه.

وأخلاقه ليست بعيدةً عن محاكمة الناس.

وهي تُرى في واقع مشاهد.

فإذا رأيتَ خللاً في واقع فاعلم أنَّ الأخلاق قد غَدَتْ سلعةً تُباعُ وتُشتَرى.

إذا رأيت عمارةً شاهقة في شارع لا يحتملها بمرافقه، فأعلم أنَّ تعاوناً وتآمراً على دمار الأخلاق قد وقع، قبل أن تقع العمارةُ على مَن فيها، وأنَّ جُيُوباً قد امتلأت، وهي تحسب أنها اغتنتْ بما صنعت.

ولا تسل عن النتائج حينما يستهين الناسُ بضوابط الأخلاق وحدودها، في أيِّ شأنٍ كان.

وهنا تأتي المسئولية أمام الناس والمجتمع. أو قُلْ: مسئولية الناس والمجتمع

الذي يحافظ على هويته، ويدرك رسالة أُمَّته، ويرى عِزَّهُ في عِزِّهَا.

لا بالأغاني والأناشيد.. بل بالأخذ بأسباب القوة والنهوض، وإيثار الأخلاق التي تَبْقَى بها الأمم، وتُجْتَازُ الْمِحَن والخُطوب.

إنَّ قيمة الإنسان في تحمُّل المسئولية.

وهي ذات جوانب متعددة، تقتضي مراجعة دائمة متصلة؛ لتهيئة الإنسان وتربيته وإعداده.

مراجعة لوسائلنا، ومؤسساتنا، وسلوكنا، وضوابط حياتنا كلها، دون ترخُّص أو إبطاء.

إنَّ هذه التهيئة والتربية والإعداد والتدريب، تقترن بولادة الطفل وتنشئته.

وينشأ الطفلُ ـ فينا ـ كما عوَّدناه، وكما يرى أُمَّه وأباه.

وينشأ ناشيءُ الفتيان فِينا على ما كان عوَّدَه أبوه

وقد رأينا رسول الله ﷺ يُعنى بتربية الطفل وتأديبه في:

موطن مأكله ومشربه..

وفي ميدان رياضته ولَعِبه..

وفي دخول المنزل وخروجه..

وفي أوقات نومه وصحوه..

وفي معاملته مع غيره.

رأيناه ﷺ يُعِدّه لتحمل المسئولية من صِغره.

وقد رأينا ثمرةَ هذا الإعداد في كل ميدانٍ من ميادين الحياة.

وقد ضرب لنا هذا الْمَثَلَ في ذلك بتوليةِ الشباب مسئولياتٍ كِبار وهم دون الثامنة عشرة من عمرهم.

وَلَّى "أسامةَ بنَ زيد" قيادةَ جيشٍ وفيه أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما -.

ورأينا الصِّدِّيقَ - رضي الله عنه - يمشي في رِكابه بعد وفاة الرسول ﷺ، وهو يودِّعه ويستأذنه في بقاء عمر - رضي الله عنه - معه في المدينة؛ لمواجهة كثيرٍ من المصاعب بعد موت رسول الله ﷺ.

بل رأينا مَن هُم دون سِنِّ التكليف يُسرعون إلى مواطن البأس؛ ليجاهدوا مع المجاهدين !

وعندما أَعْفَاهُم الرسولُ ﷺ؛ لصِغَرِ سنِّهم، استعانوا - صادقين - بالبُكاء؛ ليأذن لهم الرسول ﷺ أنْ يكونوا مُقاتلين مع غيرهم في ميدان الشرف والفداء !!

وكان مِن هؤلاء شقيق "سعد بن أبي وقَّاص" الذي أَذِنَ له الرسول ﷺ - بعد رجاء وبكاء - فكان من نصيبه شهادة في سبيل الله، لا تُنَالُ إلاَّ بشرف القصد وعِظَمِ البلاء.

والله يُؤتي فضله من يشاء.

ونرى الرسولَ ﷺ لا يُعفي من المسئولية أحداً في أيِّ موقعٍ كان.

لأنَّ الإعفاءَ من المسئولية إعفاء من تكريم وتشريف.

ففي الحديث المتفق عليه، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ

عَنْ رَعِيَّتِهِ.

فَالأَمِيرُ - الَّذِي عَلَى النَّاسِ - رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ.

وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ.

وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ.

أَلاَ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[1]

فالكُلُّ مسئولٌ في أيِّ موطن كان.

وفي المسئولية تشريف وتكليف وتكريم.

والأمم الناهضة هي التي تهيئ أبناءَها لذلك جيلاً بعد جيل.

فإنَّ المسئولية وتحمُّلَها لا تجعل في حياة الإنسان مجالاً لفراغٍ تتبدَّد فيه الطاقات، وتُنفَق الساعات.

المسئولية لا تجعل الشاب - في حيويته وقوته - طريدَ يأسٍ أو إحباط، أو صريعَ نَزَوَاتٍ وشهوات، إذا لم يُشغل بجد أو يُكلَّف بعمل، بل إذا لم يفتح أمامه باب الأمل في المنافسة على نتائج الجد والعمل، بحيث تكون همَّتُه - دائماً - عاملة للصعود إلى أُفق أعلى.

ولا أودُّ أن أضرب الْمَثَلَ بما نراه في واقعِ الحياة عند أقوام أدركوا هذه الحقيقة - إبقاءً لمجد أُمَّتهم وعزَّتِها، فجدَّدوا - بشبابهم - حياةَ أُمَّتهم، وأنقذها من تخلُّفٍ ورُكود.

لقد فعل ذلك "حزبُ العُمَّال" حين اختار رئيساً له، استطاع أن يُعيدَ

---

(1) مسلم: كتاب الإمارة.

للحزب قوَّته ونشاطَه، وعودته إلى القيادة بعد طول انتظار.

وقبل ذلك "حزبُ المحافظين" عندما اختار لنفسه شاباً أصغرَ سِنًّاً من رئيس حزب العمال؛ طمعاً في أن يبقى الحزب منافساً قوياً في حلبة صراع دولي لا يصمد فيها إلاَّ القادرون المدرَّبون، ولا مكان فيه للضعفاء أو الغافلين المغفَّلين، الذين يتعلَّقون بالأماني ولا يعملون.

الإنسان مسئول أمام ضميره. والضمير يحتاج إلى تربية، ومُناخ، وقدوة صالحة، وحُسنِ تدبر في العاقبة والمصير.

مسئول أمام مجتمعه ـ والمجتمع يحتاج إلى تعاون وتماسك وترابط؛ للقيام بمسئوليته، وسؤال مَن يعتدي ويحيد.

مسئول أمام ربِّه.

والشعورُ بهذه المسئولية يحتاج أنْ نَعِيَ عن الله ما كُلِّفنا به، وَمَا دعانا إليه، وما حمَّلنا أمانته وحاسبنا عليه. لنكون كما أراد الله لنا ـ بضوابط وصفات ـ خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾.[1]

* * *

(1) التوبة: ١٠٥.

الأمانــة
التي حملها الإنسان

الأمـانة التي حَمَلَها الإنسان

لا شَكَّ أنَّ للأمانة قدرها وعِظَم شأنها.

وهذا ما يوحي به قولُ الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾.[1]

فإبَاءُ السماوات والأرض والجبال، وخوفُها من حَمْلِ الأمانة، وإخبارُ الإنسان بذلك، فيه من التنويه ما فيه من عِظَمِ شأن الأمانة، وما يترتَّبُ على التقصير فيها.

وفيه ـ كذلك ـ من التنبيه للإنسان ألاَّ يستهين بأمرها.

وهذا شأن المخلوقات الكبيرة في النَّظر إليها، وقبول القيام بها فَأَبَيْنَ وَأَشْفَقْنَ .. ولم يكن إبَاؤُهُنَّ كإباء "إبليس" في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.[2]

لأنَّ السجود هناك كان فَرْضاً، وهاهنا الأمانة كانت عَرْضاً.

والإباء هناك كان استكباراً، وهاهنا كان استصغاراً؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ أي: خِفْنَ من الأمانة ألاَّ يؤدينها.

---

(1) الأحزاب: ٧٢.

(2) الحجر: ٣١.

ألاَ يدل إخبار الإنسان بذلك على تنبيهٍ بالغ له وتحذير.

تنبيه الإنسان ـ حيث كان ـ بعِظَم شأن الأمانة وخطرها.

وتحذيرٌ من خيانتها، وعدم الوفاء بها.

فإنَّ مَن فرَّط أو خان لن يفلت من إدانتها، والحساب على خيانتها.

وكَمْ في القرآن من تذكير بحقِّها، وبيانٍ لقَدْرِ الرَّاعِين لها، والقائمين بها.

وأنهم ـ بما اشتملوا عليه من صفات الوفاء لها ـ ناجون مفلحون مُكرمون.

وإذا عرفنا حقيقة الأمانة عرفنا صفات أهلها.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1]

إن لفظ الأمانة فيه ما فيه من دلالة على الأمن والوفاء.

وضدها الخيانة، وفيها ما فيها من نقصٍ ونقضٍ وغدرٍ.

فَالْخَوْن: أصله النَّقْصُ، كما أنَّ "الوفاء" التَّمام، ثم استُعمل في ضد الخيانة والوفاء؛ لأنك إذا خُنْتَ الرجلَ في شيء، فقد أدخلت عليه النُقصان. وقيل: معناه الغدر، وإخفاء الشيء.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.[2]

---

(1) المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢.

(2) الأنفال: ٢٧.

نَهاهُم الله عن أن يخونُوا بتَرْكِ شيءٍ ممَّا افترضه عليهم.

أو يخونوا رسوله بتَرْكِ شيءٍ ممَّا أمَّنهم عليه، أو بترك شيء ممَّا سنَّهُ لهم.

أو يخونوا شيئاً من الأمانات التي ائتمِنُوا عليها.

وسُمِّيت « أمانات » لأنه يُؤْمَنُ معها مِنْ مَنْعِ الحق. مأخوذة من "الأمن".

﴿ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ما يترتَّبُ على ذلك.

فما المراد بـ "الأمانة" في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ..... ﴾ ؟ وما الذي يُعين على أدائها والوفاءِ بها ؟

قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: « أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التي فرضها الله ـ تعالى ـ على عباده، عَرَضَها على السماوات والأرض والجبال، على أنَّهم إنْ أدُّوها أثابهم، وإن ضيَّعُوها عذَّبهم ».

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: « الأمانة أداء الصَّلوات، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحَجُّ البيت، وصِدقُ الحديث، وقضاء الدَّيْن، والعدل في المكيال، وأشد من ذلك كله الودائع ».

وقيل: هي جميع ما أُمروا به، ونُهوا عنه.

وقيل: هي الصوم، وغُسل الجنابة، وما يخفى من الشرائع.

وقال عبدُ الله بن عمرو بن العاص: « الفَرْجُ أمانة، والأُذنان أمانة،

والعين أمانة، واليد أمانة، ولا إيمانَ لمن لا أمانة له ».

وفي رواية عن ابن عباس: « هي أمانات الناس، والوفاء بالعهود، فحقٌّ على كل مؤمن ألاّ يغش مؤمناً ولا معاهداً في شيء، لا في قليلٍ ولا في كثير ».

فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السماوات والأرض والجبال

فقال لهُنَّ: أتحملْنَ هذه الأمانة بما فيها ؟ [1]

قال: إن أحسنتُنَّ جوزيتن، وإن عصيتُنَّ عوقبتن.

قلن: لا يا ربّ؛ نحن مُسخَّرات لأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً.

وقُلنَ ذلك؛ خَوفاً وخشيةً، وتعظيماً لدين الله تعالى؛ لئلا يقوموا بها، لا معصيةً ولا مخالفةً لأمره.

وكان العرضُ عليهن تخييراً لا إلزاماً، ولو ألزمهُنَّ لم يمتنعنَ عن حَملها، والجمادات كلها خاضعة لله ـ تعالى ـ مُطيعة لأمره ساجدة له ».

من هُنا نستطيع أن نُدرك معنى الأمانة وحقيقتها، ودلالة عَرْضِها على السماوات والأرض والجبال، وإبائهن وإشفاقهنَّ من حَمْلها، وأنها عامة شاملة، ليست وقْفاً على فردٍ من أفرادها.

فلنَقف على صفات الرَّاعين لها، والقائمين بها.

فإنَّ ذلك يُعينُ على فَهْمِ دلالتها في واقع.

في سورة "المؤمنون" عشر آيات، نرى فيها كيف أصبح أداء الأمانات خُلُقاً، وكيف كان الوفاء والجزاء.

---

(1) وهذا قول جماعةٍ من التَّابعين وأكثر السلف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١
ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦
فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ﴾.[1]

لقد سُئِلَت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خُلُقْ رسولِ الله ﷺ:
فقالت ـ رضي الله عنها ـ: « كان خُلُقُهُ القرآن »[2]
ثم قالت لِمَنْ سألها: « تقرأ سورة المؤمنين ؟ »

---

(1) المؤمنون: ١ـ١٠.
(2) أحمد: ٦/٩١، رقم ٢٤٦٤٥. وهو حديث صحيح.

« اقرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾[1] حتى بلغ العَشْرَ ».

فقالت: « هكذا كان خُلُق رسول الله ﷺ ».

وكل ما تضمَّنته الآيات أمانات، وقد أَجْمَلَتْ فوفَّتْ.

وجاءت الآية الثامنة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ ﴾ جامعة لكل ما يتحمَّله الإنسان من أَمْرِ الدِّين والدنيا.

فالأمانة ما يُؤتَمَنُون عليه، والعهد ما يُعاهدون عليه، من جهة الله ـ سبحانه ـ أو من جهة عباده.

وجاء الجزاءُ في خاتمة الآيات: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١ ﴾[2] بأسلوب الحصر الذي يُنبئ عن خصوصية هؤلاء بهذا الجزاء، وأنَّ الفلاح قد تحقَّق لهؤلاء.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ﴾ أي: الأحقَّاء بأن يُسَمُّوا بهذا الاسم دون غيرهم.

ثم بيَّنَ الموروث بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ وهو أوسط الجنة، كما صَحَّ تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ.[3]

والمعنى: أنَّ مَن عَمِلَ بما ذُكِر في هذه الآيات، فهو الوارث الذي

---

(1) المؤمنون: ١.

(2) المؤمنون: ١٠، ١١.

(3) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « ... إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » البخاري: كتاب الجهاد.

يَرِث من الجنة ذلك المكان ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾.

﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي: لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ قال: « يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم، التي أُعدَّت لهم لو أطاعوا الله ».

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

« مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ لَهُ مَنْزِلاَنِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ. فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ـ تَعَالَى ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ ».[1]

ويدل على هذه الوراثة المذكورة ـ هُنا ـ قوله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾.[2]

وقوله: ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.[3]

ويُستفاد من دلالة هذه الآيات من سورة "المؤمنون" ومن أقوال سَلَفِنا الصالح في الأمانة، أنَّ منها ما هو فرائض قد كُلِّف الإنسان بأدائها، ومنها ما هُو وسائل جعلها الله للإنسان.

---

(1) ابن ماجة: كتاب الزهد.

(2) مريم: ٦٣.

(3) الأعراف: ٤٣.

ليس من حقِّ الإنسان أن يستعملها لغير ما خُلقتْ له، فإذا أساء بها ولم يحسن ـ كما أمر الله ـ فقد ضيَّع الأمانة التي ائتُمِنَ على حِفظها.

والإنسانُ مُطَالبٌ أن يحفظ فَرْجَه، وأن يحفظ لسانه، وأن يحفظ جوارحه.

وحفظها ـ بما أمر الله به أن تحفظ ـ أمانة.

وهو مسئول عن ذلك ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1]

واستعمالها ـ في غير ما جُعِلَتْ له ـ خيانة.

وسيكون لهذه الأمانات شأن، أيّ شأن في الحساب والجزاء.

وإذا كان الفَرْجُ أمانة، والأُذنان أمانة، والعين أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمانَ لمن لا أمانة له، كما قال الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: « فإنها ستشهد على مَن جُعلت لهم فلم يحفظوها، حيث لم يحفظوا الله بها.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ

(1) الإسراء:٣٦.

سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.[1]

الأمانات لابُدَّ أن تُحفَظ، وأن تُصَانَ من أيِّ نوع كانت.

وهي أشمل وأكمل مما يتصوَّر كثير من الناس، من أنها مجرد وفاء في موقف طارئ وكَفَى.

إنَّ حقيقتها وجوهرها مُتَّصل ـ كُلَّ الاتصال ـ بحقيقة الإيمان.

ولا إيمان لمن لا أمانة له.

فلا تراها تُفْقَد أو تغيب في أيِّ شَأْنٍ من الشئون، صَغُرَ أو كَبُر.

فالمجلس الذي تجلسه مع الناس أمانة.

والكلمة التي تَسْمَعُها أو تقولها أمانة.

فلا تحمل إلى الناس ما يُوغِرُ صدورَهم، ويُوقِعُ الشرَّ بينهم، ولا تقُل إلاَّ ما يرضاه ربُّك، فأنت مؤاخَذ بما تتكلم به.

معاملتك كلها أمانة. في أَخْذٍ أو عَطَاءٍ، أو وَعدٍ أو عهد، أو بيعٍ أو شِراءٍ.

وما أكثر ما تُهدَر الأمانات في البيع والشراء، والأخذ والعطاء.

والوَيْلُ لِمَنْ لم يَرْعَ الأمانة في كُلِّ ذلك.

---

(1) فصلت: ١٩ـ ٢٤.

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾.[1]

في الحديث المتفق عليه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رضي الله عنهما ـ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:

إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ.

وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ.

وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ.

وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ».[2]

وفي كُلِّ ذلك ضياع للأمانة، إذا خَانَ، وإذا كَذَب، وإذا غدر، وإذا فَجَر.

إذْ من الأمانة أن تَفِيَ، وأن تصدق، وأن تَحْفَظَ ما تُحفَظُ به الأمانة، من قلبك ولسانك.

إن الأمانة رَحِمٌ لابد أن توصل في كل شيء ولا تُقْطع.

والأرحام تُوصل وإنْ قُطِعَت.

وأنت مطالب أن تَصِلَ بالأمانة مَن خَانَ أَوْ غَدَر.

---

(1) المطففين: ١ـ ٦.

(2) البخاري: كتاب الإيمان.

« وما عاقَبْتَ مَن عَصَىَ الله فيك بمثل أن تتَّقى الله فيه » كما قال عمرُ ـ رضي الله عنه ـ.

وهل كان كُفَّارُ مكة واصِلين وهم يُدبِّرون قَتْلَ رسول الله ﷺ ويمكرون؟

هل كانوا واصِلين وهم يُخرجون أصحابه من ديارهم وأموالهم ؟

ومع ذلك وجدنا الرسول الكريم ﷺ يأمر ابنَ عمِّه عَلِيًّا ـ رضي الله عنه ـ أن يبيتَ مكانه؛ ليرُدَّ الودائع والأمانات إلى أهلها.

إنَّ الأمانةَ رَحِمٌ لا تُقْطَع. تَصِل بها مَن أحسن إليك أو أساء، ومَن صادَقَكَ أو عَادَاك

وتعالَ معي لنرى أينَ تقف الأمانة ؟ ومع مَنْ تقف ؟ ومتى يكون موقفها هذا ؟

إنها تُرْسلُ مع الرَّحِم، فيقومان جنبتي الصراط، يميناً وشمالاً يوم يجمع الله الناسَ بعد البعث بأرض المحشر.

كما جاء فيما رواه مسلم عن حذيفة وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ:

قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

« يَجْمَعُ اللَّهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ[1] لَهُمُ الْجَنَّةُ.

فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ.

فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ ؟!

---

(1) أي تقرُب.

لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ.

قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ، الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا.

فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ وَرُوحِهِ.

فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ، فَيُؤْذَنُ لَهُ.

وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً »

ماذا تطلب الأمانة ؟ وماذا تطلب القرابة "الرَّحِم" ؟

إنَّ الرَّحِمَ تطلب صِلَتَها شرعاً.

والأمانة تطلب حقَّها، وهما يقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً.

وانظر ما يؤول إليه أمر الناس، وماذا يكون عليه حالُهم بالنسبة لصِلة الرَّحم ورعاية الأمانة.

يقول ﷺ: « وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ »

قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ ؟

قَالَ: « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَأَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ،.

وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ

زَحْفًا. وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ، مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ.

فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ[1] فِي النَّارِ »

وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا »[2]

ربِّ سَلِّم، رَبِّ سَلِّم، رَبِّ سَلِّمْ

أرأيت - أخي القارئ - قَدْرَ الأمانة وخطرَها ؟

أرأيتَ مع مَنْ وقفتْ على جنبتي الصراط ؟

أرأيت أنَّها رَحِمٌ - في جميع شئون الحياة - تُوصَلُ ولا تُقْطَع ؟

أرأيت كيف تُطالِبُ بحقِّها، وكيف يُؤْخَذُ مَنْ فَرَّطَ فيها ؟

أرأيت لِمَ كان الإنسان ظلوماً جهولاً؟

"ظَلُومٌ" إذْ لم يلتزم القيام بحقِّ ما حَمَلَ. وفي ذلك ظُلْمٌ لنفسه.

"جَهُولٌ" بقَدْرِ الأمانة التي التزم بها، ودخل فيها.

اللهم إنا نسألك العَوْنَ على أنفسنا، كما نسألك النصرَ على أعدائِنا.

***

(1) المكدوس: المدفوع من ورائه.

(2) مسلم: كتاب الإيمان.

ظلم الإنسان لنفسه

ظُلْمُ الإنسانِ

لنفسه

ظُلْمُ الإنسانِ لنفسه، من أين يأتي ؟ وكيف يكون ؟

وكيف ينجو الإنسانُ من ظُلمه لنفسه ؟

وفي كثير من آيات القرآن الكريم نرى إسنادَ ظُلم الإنسان لنفسه، فمن أين يأتي هذا الظلم ؟ وكيف يكون ؟

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.[1]

كثيراً ما يُصْرع الإنسانُ بهَواه، ويؤخَذُ بتدبيره.

ومن عند نفسه يكون خيرُه وشره، وتكون هزيمتهُ ويكون نصْرُه.

وما تُكنُّه الصدور لا يعلمه إلاَّ اللطيف الخبير.

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.[2]

وما يقعُ في النفس من تَغَيُّر أو تغيير ينبني عليه ما يصيب الناسَ من نِعْمَةٍ أو نقمة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا

---

(1) يونس: ٤٤.

(2) الملك: ١٣، ١٤.

بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.[1]

ولله في خَلقه سُنَنٌ لا تتبدل ولا تتحول.

مَضَت في السابقين، وتمضي في اللاحقين.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.[2]

ومن هنا وَجبَ على الإنسان أن يعرفَ سُنَنَ ربِّه.

وأن يحاسب نفسَه، وأن يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه.

وأن يؤمنَ بذلك إيمانَ المستبصر المستنير، الذي يُوقِنُ أنَّ القَدَرَ لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وأنَّ الذين يُعَلِّقُونَ كُفرَهم وجُحودَهم وظُلمَهم على الأقدار، كاذبون، يقولون ما لا يعلمون.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.[3]

إنَّ الإيمان بالقَدَرِ ـ خيرِه وشَرِّه ـ أَصْلٌ من أصول الإيمان، لا يكون المؤمن مؤمناً إلاَّ به.

---

(1) الأنفال: ٥٣.

(2) فاطر: ٤٣.

(3) الزخرف: ٢٠، ٢١.

ونِعْمَ الإيمان بالقَدَرِ وهو يحفظ الإنسان من أسى مُقْعِدٍ أو بَطَرٍ مُهْلِك.

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾.[1]

وهؤلاء الذين يحتجُّون بالقَدَرِ يحتجُّون به عندما يُسيئون، وعندما يحسنون ـ إن هم أحسنوا ـ ينسبون الإحسان إلى أنفسهم.

هؤلاء قد اتَّخذوا القَدَرَ ـ كما يُقال ـ شماعةً يُعَلِّقون عليها هزائمهم وضعفهم وتخلُّفهم وذُلهم وهوانهم وسُوءَ حالهم.

ومثل هؤلاء قد اتَّخذوا القرآن مهجوراً.

ولو اعتصموا به لعلموا أنَّ القرآن الكريم لم يدع الناس يتحيَّرون في سببِ ما يأتيهم من هزيمةٍ، أو يحيط بهم من خُذلان.

لم يدعهم يقولون متعجِّبين: « أنَّى هذا » أي: من أين لنا هذا الخُذلان ونحن مسلمون ورسول الله فينا.

بل أمر رسول ﷺ أن يقول لهم: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[2]

يقول ذلك لِمَنْ ؟

للصَّفوة الكرام من أصحاب الرسول ﷺ، وهُم مَن هُم في طُهرهم وصِدقهم وحُسن بلائهم، واستجابتهم لله وللرسول.

ولم يقل لهم في هذا المقام: « هذا ما قدَّره الله لكم » لأنَّ خطأً منهم قد وَقَعَ، فلابُدَّ أن يتحمَّلوا نتيجته، ولا يعتذروا بالقدر وهم يعلمون

---

(1) الحديد: ٢٣.

(2) آل عمران: ١٦٥.

أنَّ الله قادرٌ على نُصرتهم.

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [1]

فحين قالوا متعجبين: ﴿ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ ؟

أجابهم بما يعلمون به من أنّ ما عند الله لا يُطلب إلاّ بطاعته.

فإنَّ ما وقع بكم من عند أنفسكم، أي أنَّ خُذلانكم أتاكم من معصيتكم رسولكم، ومَن عصى الرسول فقد عَصَى الله.

تركتم ما أمركم به فخُذلتم، وجازاكم الله بما فعلتم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

هذا ما قاله الله للصفوة الكرام البَررة في آيةٍ تُتلى على الناس ليعلموا أنَّ ذنوبهم أخوف عليهم من عدوِّهم.

وأنَّهم لن يستطيعوا أن ينصروا الله في معركةٍ حتى ينصروه في أنفسهم، بتغليب أمره على هواهم.

وما لم ينتصروا بفضلهم، لم يغلبوا بقوَّتهم.

وسُننَ الله لا تُجامِلُ أحداً ولا تُحابي.

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [2] أيَّاً فاعله، ولو كان ابنَ نبيٍّ ورسول.

وقد رأينا الصحابة الكرام في مثل هذا الموقف لا يعتذرون بالقَدَر.

وإنما رأيناهم بعد ذلك يتَّهمون أنفسهم، ويحذرون المخالفة والمعصية

---

(1) آل عمران: ١٢٦.

(2) النساء: ١٢٣.

في جميع أعمالهم، ويعرفون متى يقولون: « قدَّرَ الله، وما شاء فعل ».

ولا يخلطون بين ما قدَّره الله نتيجةَ أعمالهم، وبين ما قدَّره فيما لا دَخْلَ لهم فيه.

فأفادوا من إيمانهم بالقَدَرِ - في جميع أعمالهم -: قوةً وعِزَّةً وكرامةً، ورضيً عن الله في جميع الأحوال، واتهاماً لأنفسهم إذا أبطأ النصر أو غاب عنهم.

وكان عمرُ بن الخطاب - وهو يعلم أنَّ معاصي الإنسان هي التي تدمره، وأنَّ ذنوبه هي التي تأخذه - كان يقول - إكراماً لنفسه -:

« رحم الله امرءاً أهدَى إليَّ عُيوبي ».

وذلك من فِقه القرآن، الذي ذكَّرهم بما وقع بالأُمم من قبلهم، وحذَّرهم أن يكونوا مثلهم.

فإنَّ مَا حَاقَ بهم كان مِن ظلمهم لأنفسهم.

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.[1]

والأرضُ تُنبئ عمَّا وقع فيها ومَا حَلَّ بمَن شيَّدوا بُنيانهم، وفقدوا إيمانهم، فظلموا أنفسهم وهُم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً.

---

(1) العنكبوت: ٤٠.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝ ﴾ [1]

فإصلاح النفس وسلامتها ـ مما يُنقصها أو يسيء إليها ـ هو الأصلُ فيما يُرْجَى لها من حُسن عاقبة ومصير.

فإنَّ مِن ظُلم الإنسان لنفسه أن يُشْغَلَ بعُيوبِ الناس عن عَيبه.

ومن الظلم لها أن يُرضيها بتحقيق الرغائب، ويُرديها بسُوء العواقب.

والنفس راغبة إذا رغَّبتها.

راغبةٌ في المال والمتاع..

راغبةٌ في المديح والثناء..

راغبةٌ في دُنياها، غافلةٌ عن عاقبتها وأُخراها.

فإذا جاء مَن يمدحها ـ وهذا حالُها ـ فإنه لم يُحسن إليها، بل أساء.

ومن المدَّاحِين ـ في دُنيا الناس ـ من يجب أن يُحثَى في وجهه التراب، كما أمر رسولُ الله ﷺ.[2]

ويكفيك أن تدعو بالخير لِمَن أحْسَنَ إليك، وأن تشكره على ما قدَّم إليك « ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ».[3]

ولكن الحذرَ ـ كل الحَذَرِ ـ من ناسٍ يعرفون ضعف النفس، وحاجتها إلى من يُعينها على مرضات ربِّها، ثم يأتون ليكونوا عوناً

---

(1) غافر: ٢١.

(2) عن الْمِقْدَاد ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: « أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَحْثُوَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ » الترمذي: كتاب الزهد، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(3) الترمذي: كتاب البر والصلة، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

للشيطان عليها.

وهؤلاء لو رآهم عُمر ـ رضي الله عنه ـ يُهدون إليه المديحَ والثناءَ، لكافأهم على ذلك بالدِّرةِ فوق رؤوسهم.

لأنَّ العاقل لا يستخفُّ بمديحٍ أو ثناء، وهو في حاجة إلى غير ذلك.

في حاجةٍ إلى المعاونة على الإحسان، والدعوة إليه.

في حاجةٍ إلى مَن يُبصِّره بعيبه، ويُعينه على التخلُّص منه.

لهذا رأينا عمرَ ـ رضي الله عنه ـ يدعو بالرحمة لمن أهدى إليه عيبه.

واعتبر ذلك هَديَّةً تُهدَى إليه، يكافأ من أهداها بأكرمِ ما يُرجَى.

ويطلب له الدعاء برحمة الله.

إنَّ عمرَ ـ رضي الله عنه ـ في ذلك يعلِّمنا من أين يأتي ظُلم الإنسان لنفسه، وكيف يحفظها.

ظُلمُ الإنسان لنفسه يأتيه من غروره بها، وغفلته عن حقيقتها، وفخره بزينتها ومتاعها، وفتنته بما ابتُلِيَتْ به من مالٍ وأولاد، أو منصبٍ وجاه.

كذلك الذي دخل جنَّته وهو ظالمٌ لنفسه، ظلمها بسُوء ظنِّه أنَّ ما أعطاه الله في دُنياه ـ امتحاناً واختباراً ـ بَاقٍ لا يبيد.

وقال ـ في فخرٍ واختيال ـ:

﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾.[1]

(1) الكهف: ٣٥، ٣٦.

هذا الغرور الأَبْلَهْ، وهذا الظن الفاسد، لم يَفِقْ صاحبُه بنُصح أو إرشاد، وإنما أفاق عندما أُحيط بثمره.

عندئذٍ وقع الندم، وجاءت الحسرةُ بعد فوات الأوان.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾.[1]

﴿ يَٰلَيْتَنِى ﴾ قالها متى ؟

بعد أن دُمِّرت جنَّتُه التي اعتزَّ بها، وركن إليها، وأعطاها صفةَ الدوام والبقاء؛ ناسياً أنَّ البقاء لله وحده.

وذاك موطنُ ظُلمه لنفسه.

وهو أصلُ كلِّ ظُلمٍ يقع بها ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[2]

ولا أمْنَ إلاَّ لِمَن بَرِئَ منه، وآمن، ولم يلبس إيمانه بشيءٍ منه.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.[3]

هكذا على الإطلاق مهتدون في ذاتهم..

مهتدون إلى أسباب الأمن وحقيقته.

---

(1) الكهف: ٤٢.

(2) لقمان: ١٣.

(3) الأنعام: ٨٢.

مهتدون إلى كل ما يُصلح شأنهم، ويُبعد الشرَّ عنهم.

ذلك أنهم آمنوا بالله، ولم يلبسوا إيمانهم بشركٍ ظاهر أو خفيٍّ.

فإنَّ الشركَ مدمرٌ لأهله.

ومَن ظَنَّ أنَّ الشرك ينحصر في صنمٍ يُعْبَدُ وكفى، قد يقعُ في الشرك وهو لا يدري أنَّ الشرك قد يُرَى في كل عبوديته لغير الله.

وفي الناس من تراه عبداً للدِّرهم والدينار. عبداً للمنصب والجَاه.

يُعطي لمن يُعْبَد صفاتٍ لا تُعطَى إلاَّ لله، من: الاعتزاز به، والركون إليه، والإخلاص له.

كذلك الذي دخل جنَّته وهو ظالمٌ لنفسه.

وكَمَن وصفهم الرسولُ ﷺ، ودعا عليهم حين قال:

« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ [1] إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ [2] » [3]

أي: هلك طالبها، الحريص على جمعها، القائم على حفظها. فكان لذلك عبدُها.

وكَم من أهواءٍ للناس تُتَّخذ آلهةً من دون الله !

وفي ذلك من ظُلمِ النفس ما فيه، ممَّا لا يمكن حَصْر نتائجه وويلاته في حياة الناس وروابطهم.

---

(1) نوع من الثياب.

(2) أي إذا أصابته الشوكةُ لم يجد مَن يخرجها بالملقاط.

(3) البخاري: كتاب الجهاد.

والظلم الذي يأتي للإنسان من هوى نفسه، هو الظلم الذي تتعدد آثاره، وتفحش نتائجه.

فمَن تسلّط عليه هواه لا يُبالي بما يقع فيه من ظُلم الناس وإساءتهم.

لأنَّ الهوى مُضِلٌّ مُفسِد، يدعو الإنسانَ أن يحقق مآربه من أيِّ طريقٍ كان، دونَ نظرٍ لحلال أو حرام. وعندئذٍ يكون الظلمُ ملازماً لنفسه حين يتخذ إلهه هواه.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.[1]

وعندما ينسى الإنسان الأمانة التي حملها، أو يجهل حقيقتها، لا يكون ظالماً لنفسه فحسب، بل يكون ظلوماً جهولاً.

وقد مرَّ عليك ـ من قبل ـ حقيقةَ الأمانة ودلالتها.

وأنَّ ما ضاع من أَمْنِ الناس إنَّما ضاع بضياعها.

ولا ينجو الإنسانُ من هلع إلاَّ بأداء الأمانة، والاتصاف بصفات أهلها

ولا ينجو من ظلم نفسه إلاَّ بالتخلص من العبودية لغير ربِّه.

وعندئذٍ يكون هواه تبعاً لطاعة ربِّه واتِّباع نبيِّه.

وذلك يستوجب حمل النفس على الجادة، بأن لا يدعها تلهث وراء الرغائب، وتنسى النتائج والعواقب.

يستوجبُ أن يحملها ـ حملاً ـ على الصدق في كل شيء، دون خداع

(1) القصص: ٥٠.

لها، بحيث توقن أنَّ ظلمها لغيرها ظلمٌ لها، تحمله يوم القيامة وزراً.

عندئذٍ تفعل الخير بفطرة لا تكلُّف فيها.

وتكُف عن الشر، وهي تعرف عاقبته ومغبَّته.

فإنَّ كل ما تفعله من شرٍّ ظلمٌ لها، و« الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1]

واستحضار العواقب ـ في كل شأن ـ يُعين على تحسين البدايات في كل شيء.

ولا ينجو الإنسان من سُوء العواقب إلاَّ حين يُبصر المقدمات بنُورٍ من ربِّه؛ حتى يسلم من مواتِ النفس، ويخرج من الظلمات.

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.[3]

لا يستوي هذا وذاك، كما لا يستوي مُحسنٌ ومُسيء، ومفسد ومُصلح، وظالم لنفسه ومُكرمٌ لها، بإبعادها عمَّا يُهينها من الدنايا، وقول الزور، وأن ينأى بها عن سفاسف الأمور؛ فإنَّ الله ـ تعالى ـ يُحبُّ معاليَ الأمور، ويكرهُ سفسافها »

---

(1) البخاري: كتاب المظالم.

(2) النور: ٤٠.

(3) الأنعام: ١٢٢.

وما يُحبه الله ـ من قولٍ أو عمل ـ يرفعه إليه.

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾.[1]

وإذا كان لكل شيء عاقبته، ولكل عمل جزاؤه.

فإنَّ من ظَلم غيره فإنه سيرى في العاقبة أنَّه قد ظلم نفسه بظلم غيره. يوم تؤدَّى الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، ويرى الناس أنَّ « مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ »[2] كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فلا يغترنَّ أحدٌ بإملاءٍ لظالم؛ فإنَّ « اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ »[3]

قال ﷺ: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ [٤] الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ » [٥]

ذلك هو السبيل للتخلص من نتائج الظلم هنا قبل الوصول به هناك.

لابُدَّ من التحلل من ظُلم الناس بعفوٍ أو أداء حق.

---

(1) فاطر: ١٠.

(2) البخاري: كتاب المظالم.

(3) البخاري: كتاب التفسير.

(٤) أي يطلب منه أن يسامحه ويعفو عنه.

(٥) البخاري: كتاب المظالم والغصب.

وأمَّا مَن ظلم نفسه بمعصية ربِّه. فالسبيلُ لطلب العفو والمغفرة، هو الإسراع بالتوبة والعمل الصالح.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.[1]

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.[2]

كثيراً ما يستهينُ الإنسانُ بحقوق الآخرين، وينسى أنَّ العواقب ستأتي باليسير والكبير ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[3]

قال ﷺ: « مَنْ اقْتَطَعَ [4] حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

---

(1) طه: ٨٢.

(2) آل عمران: ١٣٥، ١٣٦.

(3) الأنبياء: ٤٧.

(٤) أي امتلك حقَّ أخيه المسلم ظلماً بالحلف الكاذب.

قَالَ: « وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ [1] » [2]

وكَم من ناسٍ يؤدُّون الفرائضَ هنا في الدنيا، من صلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، ثم يُضيِّعونها بظُلم غيرهم، ويأتون يوم القيامة مُفْلِسين.

وقد نبَّه الرسول ﷺ عن ذلك؛ حتى لا يستهين أحدٌ بحقِّ غيره.

فقد روى مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « أَتَدْرُونَ مَن الْمُفْلِسُ ؟ »

قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ.

فَقَالَ: « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ - قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ - أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » [3]

أَلاَ يكون الإنسان ظالماً لنفسه ظُلماً فوق ظلم، إنْ هو ضيَّع ما كان يُرْجَى له من خيرٍ، وبقي مُفْلِساً في موطنٍ ليس فيه كسب ولا عمل ؟!

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾. [4]

* * *

(١) نوع من الشجر يُتخذ منه السواك.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان.

(3) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب.

(4) الروم: ٥٧.

ماذا يعني قصص القرآن بالنسبة للإنسان ؟

ماذا يعنى قصصُ القرآن بالنسبة للإنسان ؟

لا شيءَ أكرم بالإنسان وأَبَرُّ به من مخاطبته بالحقِّ، وإفادته منه.

ذلك أنَّه خطابُ الفطرة التي فَطَرَ اللّه الناس عليها، وإنْ مَالَ الناسُ أو حادوا عنها.

ومن أجل الخطاب بالحق ودعوة الناس إليه، أرسل الرسلَ، وأنزل الكتاب؛ ليظل نداءُ الفطرة قائماً في حياة الناس، تستيقنه نفوسُهم وإن جحدوا به.

والقصص بعامة ـ وهو مُحبَّب للنفوس ـ قد يأتي من قِبل الناس، ويكون فيه ما فيه من متعةٍ لقارئٍ أو مستمع.

ولكن قد يساق بحقٍّ أو بباطل.

وقَصَصُ القرآن ـ بخاصَّة ـ لا يُقَصُّ إلاَّ بالحق.

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾.[1]

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾.[2]

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾.[3]

وفي التقييد بالحق دليلٌ على أنَّ نبأَهُمْ قد يُقَصُّ بين الناس، ولكنْ

---

(1) آل عمران: ٦٢.

(2) الكهف:١٣

(3) القصص: ٣.

لا بالحق.

والفرق بين قصصهم بالحق وبغير الحق بعيد الأثر والنتائج.

ذلك أنَّ القصص بغير الحق لا ترتبط النفس به، ولا تتأثر إلاَّ بمقدار سماع ما فيه، ممَّا تستطرفه النفس أو تتلهى به.

ولكنَّ القصص بالحق يحمل للناس سُنناً ماضية في الخَلق، وعِبرةً دائمة، وعِظةً لمَن اتعظ واعتبر.

ومن جهة أخرى فإنَّ الحديثَ بالحق عن ناسٍ مضوا في الزمان الغابر، لا يملكه ولا يستطيعه إلاَّ مَن أحاط بكل شيءٍ علماً.

فإذا جاءنا عن طريق الوحي، وَجَبَ السماع له، والإفادة منه.

أمَّا حديث البشر عن الماضي ففيه قُصورهم، واختلاف تخيُّلهم، وتباين أغراضهم ونيَّاتهم، ولا يخلو الأمر من تزيُّدٍ أو انتقاص من صاحب هَوىً أو خيال.

فقصص القرآن هو الحقُّ، وللدعوة إلى الحقِّ.

حقٌّ في ذاته.. وحقٌّ في حكمته وغايته.

وإذا كان هذا القصص هو الحقُّ، فلا غنى للإنسان ـ بحالٍ ـ عن الحقِّ.

والإنسان ـ كما نعلم ـ له أحوال وصفات ومراحل.

من نشأة، وولادة، وطفولة، وشباب، ورجولة، وكهولة.

وله علاقته بغيره، من: أب، وأُمٍّ، وزوج، ورَحِم، وبنين، وبنات.

له علاقة بما يكون حوله، وما يقع له من غنى وفقر، وشدة

ورخاء، وصحة ومرض، وحياة وموت.

له علاقة بمجتمعة، وما يقع فيه من صراع، وما يكون فيه من حق أو باطل، وعدلٍ أو ظلمٍ، وعلمٍ أو جهلٍ، وهزيمةٍ أو نصرٍ.

والإنسان ـ رجلاً كان أو امرأة ـ على أيِّ حال كان ـ له من قصص القرآن دلالةٌ على إحاطة علمٍ بحاله، وبيانُ حِكمةٍ بالغةٍ فيما هو فيه أو عليه.

يرى ذلك في واقع عملي من خلال قصص القرآن.

قصص حقٌّ وصِدقٌ للحياة في جميع صورها..

لا يكاد الإنسان يمُرُّ بمرحلةٍ في حياته ـ منذ نشأته وولادته ـ إلاّ ويرى ـ من قصص القرآن ـ واقعاً مَرَّ بإنسان، أو مَرَّ به إنسانٌ.

يرى تفصيل كل شيء، ويشاهده كأنَّما يعيش فيه.

وهو ينقل لك مشهدَ الحياة في ماضيها؛ هداية لحاضرها ومستقبلها؛ لتعرف حكمتها وسُننها فيك وفي غيرك.

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.[1]

سبحان الله، مَن أحاط بكل شيء علماً !

إنَّ قصص القرآن ـ وهو من أنباء الغيب ـ ما كان لأحدٍ أن يعلمه، أو يُخبر به خبرَ حقٌّ وصدق، إلاّ عالم الغيب والشهادة، الذي يُردُّ إليه

(1) يونس: ٦١.

الخَلق، فينبئهم بما كانوا يعملون.

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.[1]

فلا عجب أن يأتي قَصص القرآن مُحيطاً بوقائع الناس وأحوالهم، مع اختلاف أماكنهم وأزمانهم؛ لأنَّ الذي نَبَّأ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۛ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.[2]

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ ﴾.[3]

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ ﴾.[4]

هذا القصص للإنسان حيث كان، يرى فيه وقائع ما قد سبق، وهو يُتْلَى في كتاب عزيز محفوظ.

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾[5]

---

(1) المائدة: ١٠٥.

(2) هود: ٤٩.

(3) هود: ١٠٠.

(4) طه: ٩٩ ـ ١٠١.

(5) فصلت: ٤٢.

تُعرف من خلاله سُنن الله في خَلقه.

سُننه فيمَن آمن بالله واتَّقاه، وفيمَن كذَّب بآياته وعصاه.

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾.[1]

ومن تدبَّرَ قصصَ القرآن يمكنه أن يُدرك هذه الحقائق:

الحقيقة الأولى:

أنَّ هذا القصص يُريك من أنباء ما قد وقع ما يُغنيك عن طلب عِبرة في غيره. ذلك أنَّك - على أيِّ حال كُنت - تجد من حال مَن أخبرك عنه عِظة لِحَالِك، وبياناً لعاقبة ما تختاره، وأنت ترى العاقبة فيمن سبق من قبلك.

الحقيقة الثانية:

أنَّك ترى - فيمَن قصَّ علينا القرآن نبأهم - الطفلَ الرضيع، والشيخ الكبير، والرجل والمرأة، والحاكم والمحكوم، والغنى والفقير، والظالم والمظلوم، والصحيح والمريض، والشكور والجحود، وفتيةَ الخير وعُصبةَ الشَّر.

ترى أَبَاً يَعِظُ ابنَه، وابناً ينصحُ والده.

ترى زوجةً مؤمنة، وزوجاً كفوراً.

وترى زوجاً صالحاً وامرأةً خَئُوناً.

ترى صراعاً بين أخوين، أخاً - من أبناء آدم - يقتُل أخاه.

ترى قتالاً بين فئتين، فئةٍ قليلة صابرة، وفئةٍ كثيرة باغية، وتعرف مَن غلب ومَن غُلِبَ.

فترى ما أخبر الله به واقعاً في أحداث الحياة.

---

(1) الأنفال: ٤٢.

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1]

ترى للنسوة كيداً ـ وكيدُهُنَّ عظيمٌ ـ وترى للحقِّ نصراً يبطل به كيد الكائدين، وباطل المبطلين.

ترى تآمر أغنياء على حقِّ فقراء، يتآمرون وهم يتخافتون، ويغيب عنهم أنَّ الله يعلم ما يُبيِّتون.

فترى نِقمةَ الله أسرع إلى جنَّتهم من ذهابهم إليها مُصبحين.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ ﴾[2]

فقالوا متحسرين نادمين ـ لمَّا رأوا جنَّتهم قد احترقت قبل أن يَصِلوا إليها ـ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ ﴾[3]

ترى أحداثَ الحياة كلها في وقائع لا تغيب عنك دلالتها.

الحقيقة الثالثة:

أنَّ قصص القرآن ـ وهو يذكر العواقب ـ لوقائعَ وأحداثٍ وقعت في حياة أُممٍ ماضية، إنما يقدِّم لنا ـ بذكر العواقب ـ سُنَنَ الله الباقية، دونَ نظرٍ لنسبٍ أو زمن أو تاريخ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٤ ﴾.[4]

---

(1) البقرة: ٢٤٩.

(2) القلم: ١٩، ٢٠.

(3) القلم: ٢٩.

(4) البقرة: ١٣٤.

الحقيقة الرابعة:

أنَّ القصةَ قد تقرؤها مجملةً في سورة، ومُفصَّلةً في سورة أخرى.

كقصة موسى وفرعون ـ مثلاً ـ تقرؤها مجملة في سورة "النازعات" أو غيرها، في كلمات أو أسطر معدودات، وتقرؤها مُفصَّلة في سورة "طه" وسورة "القصص" وغيرهما، في صفحات متتابعات.

ولا استغناء عمَّا جاء من تفصيل، وما وقع من إجمال؛ حيث يكون في التفصيل مقاصد ودلالات.

ولا تكرار في إجمال قصةٍ واحدة وتفصيلها إذا جاءت في سور متعددة من القرآن، مع ما تحمله ـ في كل موضع ـ من دروس وعِبر وعِظات. وهي تتآخى مع آيات السورة التي وردت فيها، وتتَّسق في أسلوبها ومقاصدها وهدايتها.

وذلك من أَبْيَنِ صُور الإعجاز في القرآن الكريم.

قصص الأنبياء في القرآن الكريم يجعلك تعيش في واقعهم جميعاً.

لا تنفصلُ عنهم، ولا تُفرِّق بينهم وأنت ترى حقيقة واحدة لا خلاف فيها.

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (1)

يقولها كُلُّ نبيٍّ لقومه.

رسول الوحي إليهم واحدٌ لم يتغير. جبريل عليه السلام رُوحُ القُدس.

والحقيقة التي حملها إليهم جميعاً واحدة.

---

(1) الأعراف: ٥٩.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.[1]

هكذا ـ بأقوى دلالات الحصر ـ يُخبر الله عن حقيقة ما أُرسِلُوا به جميعاً، وأُمِروا به.

دعوتهم واحدة، وسُنن الله جميعاً فيهم واحدة، لا تباين ولا تفاوت، حتى في الكلمات التي يقولونها، أو يقولها أعداؤهم ومكذِّبوهم.

﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾[2] يقولها كُلُّ نبيٍّ لقومه.

﴿ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾[3] يقولها كُلُّ مكذِّبٍ لرسوله.

وكأنما اجتمعوا وتواصوا على ذلك، مع تفاوت الزمان والمكان.

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.[4]

﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلاً ﴿٧٧﴾ ﴾.[5]

« دِينٌ واحدٌ » وصَّى الله به الرسلَ جميعاً، وأمرهم أن يُقيموه ولا

---

(1) الأنبياء: ٢٥.

(2) الأنعام: ٩٠.

(3) الذاريات: ٥٢.

(4) الذاريات: ٥٢، ٥٣.

(5) الإسراء: ٧٧.

يتفرَّقوا فيه.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾.[1]

وهذه الحقيقة قد تغيب على كثيرٍ ممَّن يسمعون الحديث عن الأديان، فيتصورون أنَّ كلَّ نبي قد بُعِثَ بدينٍ غير ما بُعِثَ به مَن كان قبله.

وهذا التصور خاطئ ومُسيء.

أمَّا إنَّه خاطئ: فإنَّ الحقيقة أنَّ رُسلَ الله جميعاً قد بُعثوا بدين واحد.

وأمَّا أنَّه مسيء: فإنَّ التفرقة بينهم تؤدِّي إلى فُرْقَةٍ في حياة الناس وتؤثِّرُ في أمنهم وسلامهم.

لا تفرقةَ بينهم، ولا خلافَ فيما بُعثوا به، وأُمِروا أن يقيموه ولا يتفرقوا فيه.

وهم جميعاً بُرَآءُ من كل مَن يُنْسَبُ إليهم ما لم يقولوه، أو يؤمنوا به.

وقصص الأنبياء في القرآن الكريم خطابٌ للإنسان حيث كان يُعلِّمه حقيقةَ الرسالة والرسول، ويُبطل كلَّ ادِّعاء يخالف ما بُعثوا به، وأُرسِلوا من أجله.

إنَّ قصص الأنبياء في القرآن الكريم جامعةٌ مفتوحة، لا يُغلَق بابُها، ولا يتوقَّف عطاؤها.

تجمع بين رُسل الله جميعاً؛ ليقولوا كلمتهم للناس جميعاً مجتمعين.

---

(1) الشورى: ١٣.

لا تفصل بينهم فواصلُ زمانٍ أو مكان، وسيكون كذلك يوم يقوم الناس لربِّ العالمين.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.[1]

وقصصُ الأنبياء يُرينا النتائجَ لِمَن كذَّب وعَصَى، وأدبَرَ واستكبر.

كما يجعلنا نشاهد حِمَى الله لِمَن اعتصَمَ به، وابتغى رِضاه.

مِن قصص القرآن نعلمُ أنَّ مَن حَفِظَه الله لا يُضيِّعه الناس.

وأنَّ المكر السيئ لا يَحِيقُ إلاَّ بأهله.

وأنَّ البَغي والنَّكْثَ والمكرَ مِمَّن كُنَّ فيه كُنَّ عليه..

كما قال الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ:

« ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه كُنَّ عليه: البَغي، والنَّكْث، والمكر ».

وذلك من فِقه القرآن، الذي نقرأُ فيه حقيقةَ هذا القول، ونرى في قصصه واقعَه.

نقرأُ في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴾.[2]

ونَقْرَأُ: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾.[3]

ونَقْرَأُ: ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.[1]

---

(1) يوسف: ١١١.

(2) يونس: ٢٣.

(3) الفتح: ١٠.

ويكفي الإنسان أن يقرأ من نبأ موسى وفرعون ما قصَّه الله عليه لِيرى النتائج، ويدرك الحقائق، ويأخذ من الدلالات ما يثبت به الفؤاد، ويحفظ اليقين، ويُبصر حقائق الدِّين في واقعٍ، فلا تصرفه الرغائبُ عن العواقب.

يكفيك أن تقرأ من أوَّلِ سورة "القصص" من الآية {١} إلى الآية {١٣} لترى كيف يَحيق المكرُ السيئ بأهله، وكيف يُحفَظ مَن أراد الله حِفظه، وكيف يتحوَّل الذين استخفَّهم فرعونُ فأطاعوه.

كيف يتحوَّلون من دَبَّاحِينَ إلى خَدَّامين !

ترى وترى.. فانظُرْ ـ لنفسك ـ ماذا ترى.

فإنَّ نبأَ موسى وفرعون ـ الذي قصَّه الله علينا ـ فيه دروسٌ:

للأغنياء والفقراء..

للحُكَّام والمحكومين..

للكبار والصِّغار..

للرجل والمرأة.

قِصَّةٌ تنفذُ إلى أعماق النفس، بما فيها من دلالاتٍ وعِبر.

وفي جميعها ترى عملَ القُدرة الإلهية، والعلمَ المحيط بكل شيء.

فإنَّ هلاك فرعون ـ ومَن معه ـ لم يتمّ بجيوشٍ يُصارِعُ بعضُها بعضاً.

وإنَّما تَمَّ بأخْذٍ من الله، وإهلاكٍ منه.

وفرعونُ في قِمَّةِ كِبْره وَصَلَفِه، وتسلطه وبَغْيه.

---

(1) الأنعام: ١٢٣.

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾.[1]

والمؤمنون ـ وحدهم ـ هُم الذين ينتفعون بما في هذا القصص من عِبر وعِظات.

وهُو محفوظ بحِفْظِ الله في كتابٍ عزيزٍ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ [2]

يُبصِّرُ الناسَ ويُعلِّمهم سُنَنَ الله في خَلقه، وما يجب أن يكونوا عليه في جميع شئونهم، من معرفة الله وخشيته.

ويُحذِّرهم من الذنوب والآثام، وهو يُريهم عاقبةَ الظُّلم ومصارعَ الظَّالمين.

قِصَّةٌ تَرى فيها الوليدَ الرَّضيع.

وترى الأُمَّ تخشى على رَضِيعها، في وقت يُذبح فيه كل مولود.

وترى أُخْتَ الرَّضيع تتحركُ في هذا الجو المشحون بالرعب والفزع.

وترى آلَ فرعون وهُم يحملون الرَّضيع إلى امرأةِ فرعون، ويطوفون به؛ للبحث عن مُرْضِعٍ يقبلُ ثَدْيها.

ولا يستقرُّون حتى يعودَ إلى أُمِّه، وهم لا يشعرون.

وترى فرعونَ ـ بتدبيره وحِرصه وبَغيه ـ خادماً ـ بمُلْكه ـ لهذا الرَّضيع، وهو لا يدري أنَّ الوليدَ ـ الذي خافه على نفسه ـ يأتيه ليُرَبَّى في

---

(1) القصص: ٣.

(2) فصلت: ٤٢.

قصره، يُحْفَظُ برعاية الله، ويُصنَعُ على عينه..

ونرى امرأةَ فرعون في هذه القصة ـ من بداية أمرها إلى نهايته ـ مَثَلاً حَيًّا للمؤمنين.

وترى العواقب والنتائج، فيخشع قلبُك للحق الذي جاءت به آيات ربِّك، وَدَعَتْ إليه.

وحيثما كُنتَ، وعلى أيِّ حال كُنْتَ، فَلَكَ في هذه القصة عِظَة وعِبرة.

إنَّها قصةٌ تنفذُ ـ بعِبرتها ـ إلى أعماق النفس، فَتَئِد الشَّرَّ قبلَ أن يُولَد، وهي ترى عاقبته ومصرع أهله.

وتنفذ إلى قلبِ المستضعفين، فتعلِّمه كيف يستمسك بمرضاةِ ربِّه.

وهي تُريه من مِنَّةِ الله على المستضعفين في الأرض، فتجعلهم أئمةً، وتجعلهم الوارثين.

وتنفذ إلى قلب الأُمِّ المفزَعة بالبغي والظلم والتسلط، فتعلمها كيف تلجأ إلى الله، وتعتصم به، وهي ترى أُمَّ موسى تُحاط بحمايةٍ ربانية في أشد لحظاتِ الفزع والمكر السيئ، تُطمئِنُ قلبَها، وتحفظُ وليدَها، وتُعيده إليها؛ لترضعه بأجرٍ وتكريم، وتحوَّل المتسلطين إلى خادمين.

قصة تنفذُ إلى قلوب الحُكَّام ـ حيث كانوا ـ فتعلِّمهم أنَّ ما بأيديهم يُهدده طغيانُهم، وتُبيده معاصيهم، وتعصف به ذنوبُهم، وهم بذلك يُؤخَذُونَ ويُهلَكون.

قصة تنفذُ إلى قلوبِ المحكومين، فتُعلِّمهم أنَّ طاعةَ الحُكَّام ـ في معصيةِ الله ـ تسوقهم معهم إلى البَوار والدَّمار.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.[1]

قصةٌ تُعلِّم كُلَّ إنسانٍ أن ينظر إلى العواقب، فيُحسن في المقدمات ولا يُسيء، ولا يقف عند الرَّغائب، فيركنُ إليها، وينسى سُوءَ عاقبتها.

قصةٌ تُعلِّم جميعَ الناس أنَّ بساطَ دُنياهم سيُطْوَى، وأنَّهم قادمون على دارِ البَقاء، ولا أَمْنَ لهم فيها إلاَّ بصِدْقِ الإيمان والاستقامة، كما أمر الله.

وإذا انتهت فترةُ دُنيانا لم يبقْ للإنسانِ فيها إلاَّ مَا تَرَكَ وراءَه من ذِكْرٍ حَسَنٍ أو قبيح.

ذِكْر حَسَن يُذْكَرْ به في الناس، فيدعون له..

أو ذِكْر قبيح سيئ، فيسخطون عليه، ولا يذكرونه إلاَّ بعمله.

لقد مضى فرعونُ بِلَعَنَاتِ الدنيا، وعذاب الآخرة.

وطُوِيَ بِساطُ مُلكه كأن لم يكن !

انتقل إلى ما ادَّعَاه لنفسه ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾[2] انتقل إلى مَن استخلفهم الله من بعده؛ لينظر كيف يعملون.

---

(1) الزخرف: ٥٤ ـ ٥٦.

(2) الزخرف: ٥١.

وسينتهي ميراثُ الأرض ومَن عليها لله الواحد القهار.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.[1]

وبقيتْ امرأةُ فرعون ـ بذكرها، وطيبِ سيرتها، وصِدقِ إيمانها ـ مَثَلاً للمؤمنين.

أمَّا موسى الوليد الرَّضيع، الذي استهدفه فرعونُ من قبلِ ولادته، فقد حَفِظه الله ورَعاه، وألقى عليه محبةً منه، وصنعه على عينه، واختاره ـ بعد بلاءٍ وتمحيصٍ ـ ليكونَ رسولاً من أولي العزم من المرسلين.

والقرآن المجيد يُرينا كُلَّ ذلك؛ ليُعلم ما للحق من ثبات وبقاء، وما للباطل من غُثاءٍ وجَفَاء.

حتى لا يركنُ أحدٌ إلى باطل، أو يستبطئ أحدٌ نُصْرَةَ حَقٍّ.

فإنَّ الله لا يعجلُ بعَجَلَةِ أحد، والباطلُ زاهق، لا محالةَ.

ومَن اتَّبعه زَهَق معه.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.[2]

* * *

(1) مريم: ٤٠.

(2) الزمر: ٢٧، ٢٨.

الإنسان عُلم بالقرآن
ما لم يكـن يعلم

الإنسان عُلِّمَ بالقرآن

ما لم يكن يعلم

أ ـ عُلِّمَ الإنسانُ بالقرآن حِكمة خَلقه، وغَاية وُجوده.

فإنَّ الله لم يخلق شيئاً عبثاً أو باطلاً.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾.[1]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.[2]

والذين يتصوَّرون أنَّهم يعملون ما يشاءون في دُنياهم بلا حساب أو جزاء، أو أنهم متروكون سُدَى، يموتون ولا يرجعون، لا يُخطئون فحسب، بل يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

إنَّ حكمة الخَلق تأبى أنْ يُخلق الإنسانُ لدُنياه، ولا يسأل عمَّا قدَّمت يداه.

تأبى أن تكون دُنيا بلا آخرة، ومقدمة بلا عاقبة، وعمل بلا جزاء.

تأبى أن يسوَّى بين مفسد ومُصلح، ومؤمن وجاحد.

فلابُدَّ من يومٍ يقوم الناسُ فيه ـ جميعاً ـ لربِّ العالمين.

---

(1) ص: ٢٧.

(2) المؤمنون: ١١٥، ١١٦.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾.[1]

وبذلك تتَّضح حكمة الابتلاء التي خُلق لها الإنسان، وجعل ما على الأرض زينة لها.

إنها فترةٌ محدودة للخَلق وللزينة، يُجعل كُلُّ شيءٍ بعدها حصيداً كأن لم يَغْنَ بالأمس.

وعندئذٍ يجد الناسُ كلَّ ما عملوه حاضراً في عاقبةٍ ومصير.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ ﴾.[2]

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ ﴾.[3]

خَلَقَ الله الموتَ والحياة؛ للابتلاء والامتحان.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾.[4]

وَخَلَقَ الله الأرضَ، وجعل ما عليها زينةٍ لها؛ للابتلاء والامتحان.

---

(1) المجادلة: ٦.

(2) آل عمران: ٣٠.

(3) الكهف: ٤٩.

(4) الملك: ١، ٢.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾.[1]

بَلْ خَلَقَ اللّه السماواتِ والأرضَ ـ وهُما أكبرُ مِن خَلق الناس ـ ليُبتَلَى الناس بما يُخاطَبون به، من موتٍ وحياة، وبعثٍ وحساب، وجزاء، وجنةٍ أو نار.

وفي الأرض آياتٌ، وفي السماءِ آياتٌ تبصِّر وتُذكِّر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾.[2]

مع الابتلاء يعلم الناسُ بأنفسهم عن أنفسهم مَن أحسن ومَن أساء ـ واللّهُ أعلمُ بهم ـ ويكون الحسابُ والجزاءُ على ما وقع من عملٍ عدلاً ووفاء ـ جزاءً وِفاقاً.

وبذا لا يكون للباطل ولا للعبث دَخْلٌ في عمل الإنسان وجزائه.

ولا موضعَ له في فهمه واعتقاده، بعد بلاغ وإنذار.

وجزاء الإنسان على ما قدَّمت يداه. ومصيره مرتبط بما قدَّم من خيرٍ أو شر. ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.[3]

---

(1) الكهف: ٧، ٨.

(2) هود: ٧.

(3) الزلزلة: ٧، ٨.

وعندئذٍ لا يستوي محسنٌ ومسيء، ومؤمن ومفسد، ومُتَّقٍ وفاجر، في عاقبة ومصير، كما لم يستو هؤلاء في بيان ما جاء به الكتاب وذكّر به، فأعذر وأنذر.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.[1]

بالقرآن عُلِّمَ الإنسانُ حكمة خَلقه وغاية وُجوده.

وأنَّه ما خُلِقَ إلاَّ ليُخلص في عبادة ربِّه

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]

وقد يجهل الناسُ أبعادَ هذه الحقيقة، أو يحصرونها في أضيق صورة، من شعائر دينهم، أو عمل دُنياهم.

وهم بذلك يُخطئون ويُسيئون.

إنَّ ما خلقهم الله له لا يُحصر ولا يُحَدُّ بأهوائهم وشهواتهم.

فإنَّ الحقَّ - في تحديد ما خُلِقوا له، من الإخلاص في عبادة ربِّهم، وعدم الإشراك به - لا يكون إلاَّ من الله عزَّ وَجَلَّ.

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾.[3]

---

(1) ص: ٢٨، ٢٩.

(2) الذاريات: ٥٦.

(3) المؤمنون: ٧١.

وَلَمْ أَرَ شيئاً ظُلِمَ في حياة الناس كما ظُلمت هذه الحقيقة، حين حُصرت فيما يهواه الناسُ، لا فيما يرضاه الله.

عبادةُ الله لا تفارقُ شيئاً من سَعى الإنسان على الإطلاق.

لا تُبارح ظاهرَه وباطنَه.. سِرَّه وَعَلَنه... قَوْلَه وَفِعْلَه.

لا تُبارح الفردَ، ولا الأسرة، ولا الأُمَّة، ولا المجتمع الإنساني في روابطه وتعامله، وإقامة العدل في كل شأن من شئونه.

وَا عَجَباً حين تُحصَر هذه العبادة في ركعاتٍ وسَجَدات، أو في صيامِ ساعات، أو دَفْع زَكَوَات قد تضيع كلها في ظُلم أو بَغيٍ وإساءات.

ويأتي أصحابهُا عند ربِّهم مُفلسين ممَّا أقاموا من عباداتٍ، حسبوها تُغنيهم، فضيَّعوها بسُوء فَهمهم لمعنى الإخلاص في العبادة، وخُلُوِّها من المحبطات والمفسدات والمبطلات.

وقد زُكِّيَت عند رسول الله ﷺ امرأة، تصومُ نهارَها، وتقومُ ليلَها، ولكنها تُؤذي جيرانَها بلسانِها.

فقال ﷺ: « لا خيرَ فيها، هي من أهل النار »[1]

العبادةُ لله طُهْرٌ، وعِزٌّ، واستقامةٌ، وعَدلٌ، وعِلمٌ، وَجَدٌّ، وعملٌ، وبرٌّ، وصبرٌ واثِقٌ، لا يأسَ معه ولا قنوط، وهِمَّةٌ عاليةٌ في طلب المعالي، والبُعد عن سفاسف الأمور.

فإذا رأيت أضداد هذه الصفات في سُلوك أفرادٍ أو جماعات، فاعلم

---

(1) رواه أحمدُ عن ابي هريرة (٩٢٩٨) ورواه الحاكمُ في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

أنَّها قد أساءت فَهْمَ العبادة في اعتقادٍ أو تطبيق.

وقد تُساق الأُمَّةُ إلى جهنم - وهي تزعم أنها تعرف ربَّها - لا لشيء إلاَّ أنها رَضِيت بأن تكون مستضعَفَة في الأرض، ولم تأخذ بأسباب نهضتها وعِزِّها، في أرض واسعة موفورة الأسباب؛ لحِفظ كرامة وفضل.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾.[1]

إنَّ العبادة الخالصة لله تُحقِّق في الإنسان عِزَّاً، لو أراد أن يكون معه دونَ ذلك مَا استطاع.

وقد رأينا "جعفرَ بن أبي طالب" وهو مهاجرٌ بالحبشة، وله حاجة في بقائه ومَن معه مهاجراً، وقد أرسلت قريش في طلبهم.

فجاءت لحظةٌ اختُبِرَ "جعفرُ" فيها في أَعَزِّ ما يعتزُّ به، من عبادة ربِّه.

حين فشل موفَدُوا قريشٍ في إقناع "النجاشي" بعودتهم، وأرادوا أن يُحقِّقُوا شيئاً من إغارة الصدور عليهم.

فقالوا لبطانة النجاشي: « أطلبوا منهم حين يأتون أن يُحَيُّوا النجاشيَّ، كما تُحيُّون ».

وكانت التَّحيةُ سجوداً، أو قريباً من السجود.

فخاطبوا جعفر ابن أبي طالب - رضي الله عنه - بذلك، وأرادوا أن

---

(1) النساء: ٩٧.

يُحقق لهم ما طلبوا.

فَأَبَى كُلَّ الإبَاء.

وقال: « لا نسجد إلاَّ لله ».

قال ذلك في وقتٍ قد تُستباح فيه الحِيلة.

ولكنَّ عزَّته بعبادة ربِّه، والإخلاص له، لم تجعله يعطي شيئاً من حقِّ هذه العبادة لأحدٍ سواه.

الإنسانُ خُلق ليعبد ربَّه. فإذا رأيته عبداً لشيءٍ سواه، فاعلم أنه سيُصاب بشتى ألوان الذُّل والهوان.

ذُلُّه لقطيفةٍ، أو منصبٍ، أو جَاه.

ذُلُّه لحصولِ ما يعبده من دون الله، من درهم أو دينار.

وَتَعِسَ مَن يعبد غيرَ الله.

الإنسانُ عُلِّمَ بالقرآن حكمة خَلقه، وغَاية وُجوده.

وهذه الحكمة والغاية هي ـ وحدها ـ التي يصلح بها في ذاته، ويصلح مع غيره.

هي التي يُناطُ بها سِلْمُه وأَمْنُه، ويحفظ بها حقُّه وحق غيره.

هي التي ينحسر بها الغلو والبغي، وطلب العلو في الأرض والفساد.

ويجد بها الناسُ ـ جميعاً ـ مساواتهم ـ بلا ادِّعاء ـ في الحقوق والواجبات، حيث لا يعبدون إلاَّ الله، ولا يتخذ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله.

وتلك ما أُمِرَ رسولُنا ﷺ أن ينادي بها أهلَ الكتاب:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.[1]

أي: إن تولّى أهلُ الكتاب عن الاستجابة لكلمة سواء - في تقرير الحقوق والمعاملات - فاشهدوا أنتم على أنفسكم - بعملٍ وواقع - أنّكم مستمسكون بها، مُخلصون لها.

مستمسكون بها في حقيقتها.

ومستمسكون بما تدعو إليه من عدلٍ ومساواة.

لأنّكم - بذلك - ستكونون أهلاً لها، لا تَهينون، ولا تُستَضْعَفون، ولا تُستذلون.

وعندئذ سيستجير بكم مَن ليس منكم، فتجيروه.

ويحتكم إليكم مَن يخالفكم، فتُنصفوه.

ولكن عليكم أن تصدقوا في نداء مَن تدعونهم إلى كلمة سواء

وأن يُرَى الصِّدقُ فيما بينكم، في روابطكم ومعاملاتكم، وإصلاح ذات بينكم.

يُرَى الصدق في تميّزكم وانتصار الفضائل في أنفسكم.

وتكونون بها - وبالعمل بمقتضاها - خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله.

---

(1) آل عمران: ٦٤.

ولا يلزم من النداء بها، والدعوة إليها أن يكون الناس جميعاً على دين واحد ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1]

وإنَّما الذي يكون هو أُمَّةُ خيرٍ تدعو إليه، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتصدق فيما تدعو وتأمر وتنهى، فتُنصف المظلومَ ولو كان من غيرها، وتأخذ على يَدِ الظالم ولو كان منها.

وحين تُوجد هذه الأمة تكون ـ في ذاتها ـ دعوة صادقة لعبادة ربِّها.

بمكانتها، وقوَّتها، وقُدرتها على تحقيق العدل، وَدَفْعِ الظلم، لا فيما بينها فحسب، بل في رُبُوع الأرض كلها.

وعندئذ تكون غالبة بتأييد الله لها، منتصرة بأسباب النصر، التي يبعُد بها الفشل، وذَهَاب الرِّيح، ويُصان الحق، ويُقام العدل والقسط.

والناس يرون ـ في كل عصر ـ ماذا يكون شأن الأُمَّة القويَّة في التأثير على الناس، ومحاولة تقليدها، أو الركون إليها.

فإذا وُجدت الأُمَّةُ القويَّةُ العادلة، التي يستظل الإنسان بعَدْلِها حيث كان، فذلك ما يُرْجَى من حكمة وغاية خَلق الإنسان.

وذلك ما من أجله أرسل الله الرسلَ بالبيِّنات، وأنزل الكتاب والميزان.

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ

---

(1) يوسف: ١٠٣.

وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.[1]

والأُمَّةُ التي تعبد ربَّها ـ أو تدَّعي ذلك ـ إنْ لم تكن كذلك، فقد يستبدل اللهُ قوماً غيرها.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.[2]

ذاك ما تعلَّمه الإنسانُ من القرآن.

كما تعلَّم أسبابَ تحقيق ذلك : بالعلم والعمل..

العلم بدُنياه بدافعٍ من دينه.

والعلم بدينه لصالح دُنياه وآخرته، بلا تفرقة.

وأن يكون العلمُ عملاً وفضلاً وخُلقاً.

و« فِقه التدين » يقتضي أن لا تُثار قضايا الدِّين بعيداً عن الواقع، ويُعالَج الواقع بغير فطرة الدِّين.

والإنسان قد عُلِّم بالقرآن كيف يحيا حياةً طيِّبة في دُنياه، ويفوز برحمةِ الله في أُخراه، في امتزاج فطريٍّ لا تبايُنَ فيه، ولا تعارض ولا تناقض.

فإنَّ الثواب في الآخرة قد يتحقق للإنسان وهو يباشر شهوته، ويُحقِّق مُتعته، ما دام لا يبغي ذلك إلاَّ فيما أحلَّ الله له.

قال ﷺ: « وَفِي بُضْعِ[3] أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ »

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟!

---

(1) الحديد: ٢٥.

(2) محمد: ٣٨.

(3) البُضْع: يُطْلَقُ على الجماع وعلى الفَرْج نفسه.

قَالَ: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟
فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ »[1]

وعندما نقول: « يتعلّم شئونَ دُنياه بدافعٍ من دينه » إنما نريد لنتائج العلم أن تُصانَ من عَبَثِ العابثين وبغي المتسلطين؛ ذلك أنَّ للعلم نتائجه، وقِيَم الإنسان وأخلاقه هي التي تُصان بها النتائج، فلا يدمر الإنسانُ بنتائج العلم ما يُعَمِّر، ولا يسوق الفناء إلى ما شيَّد من بناء.

خُذْ مَثَلاً "الحديد" الذي ذكره الله في الآية الكريمة:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.[2]

« الحديدُ فيه بأسٌ شديد ومنافعُ للناس ».

والله قد أنزل الحديدَ وهو يعلم ما فيه من قوَّةٍ، وما فيه من منفعة.

والإنسان هو الذي يستعمل الحديدَ في هذه أو تلك.

ولابُدَّ لاكتشافه وصياغته على نحوٍ ما من علم وعمل.

والإنسان هو صاحب الغاية فيما يقصد ويعمل..

فلابُدَّ من العناية بالإنسان ـ أوّلاً ـ بتحديد رسالته، وبيان غايته.

وهذا ما كان، إذ نرى الآية الكريمة ـ قبل أن تذكر الحديد وما

---

(1) مسلم: كتاب الزكاة.

(2) الحديد: ٢٥.

فيه من قوَّة ومنفعة ـ تذكر ما يصلح به أمر الإنسان، من منهج ومقصد.

حيث قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾

قال الله ذلك قبل أن يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ... ﴾

وهُنا يكون الامتحان والاختبار للإنسان حيث كان، وقد توفَّرت في يده أسباب القوة والمنفعة، وتحدَّدت الرسالة والغاية.

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

ويستطيع الإنسان ـ بلا عَناءٍ ـ أن يرى نتائج العلم والعمل في سلوك الأفراد والأمم.

يستطيع أن يجيب: هل استُعملت أسباب القوة والمنفعة في نَصْرِ الله ورسله ؟ أم استُعملت ـ عند كثير ـ في غير ذلك ؟

وماذا كانت النتائج في سِلم الإنسان وأَمْنه، في نفسه ومع غيره ؟

إنَّ نَصْرَ الله ورُسله معناه: نَصْرُ الفضائل والمكارم.

معناه: إقامة العدل مع العدوِّ والصديق، والقريب والبعيد.

معناه: استعمال الحديد لردْعِ الظلم والبغي والفساد.

وذلك هو الدَّفْعُ الذي عَنَتْهُ الآية الكريمة.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾.[1]

نصْر الله ورُسله لمصلحة الناس، والله غنيٌّ عن العالمين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[2]

وإذنْ هو الامتحان والاختبار للإنسان، دون حاجةٍ لله في عمل الإنسان.

امتحان واختبار يترتب عليه حسابٌ وجزاء لِمَن أحسن أو أساء.

وَمُلْكُ الله لا تُزيده طاعةُ طائع، ولا تُنقصه معصيةُ عاصٍ.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.[3]

ومن أوَّلِ ما نزل من الوحي علَّمنا القرآن بمَ تُصان النتائج ـ نتائج العلم ـ لمصلحة الإنسان؛ حتى لا يقع بغي أو طُغيان.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾.[4]

---

(1) البقرة: ٢٥١.

(2) الحج: ٧٤.

(3) إبراهيم: ٨.

(4) العلق: ١ ـ ٨.

يا الله.. يُتلى ذلك على النبيِّ الأُمِّي، الذي لم يقرأ ولم يكتب.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾.[1]

ولا أحد يجهل ما صنع القلمُ في حياة الإنسان، بل في حضارة الأمم ونهضتها. ما صَنَعَ في علمٍ وعمل، وتواصل وترابط، وعهود ومواثيق.

﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ ﴾[2]

« نَبَّه - تعالى - بهذا على فضل عِلْمِ الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلاَّ هو؛ فما دُوِّنت العلوم، ولا قُيِّدت الحِكَم، ولا ضُبطت أخبار الأوَّلين ومقالاتهم، ولا كُتُب الله المنزلة، إلاَّ بالكتابة. ولولا هي ما استقامت أمورُ الدِّين والدنيا. ولو لم يكن على دقيقِ حِكمة الله ولطيفِ تدبيره، دليل إلاَّ القلم والخط، لَكَفَى به ».

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[3]

ولا يستطيع إنسان أن يُحصي ما تعلَّمه الإنسان - في شتَّى ينابيع العلم والمعرفة - وما ترتب على ذلك من تفوُّق مُذهل في مجال الصناعة وعلوم الفضاء، بل في مجالات شتَّى من شئون الحياة، حتى سلبت مظاهرُه كثيراً من عقول البشر، وغدا مَثَلاً أعلى عند كثير ممَّن أُخِذوا به، وفُتِنوا بمظاهره.

---

(1) العنكبوت: ٤٨.

(2) العلق: ٤.

(3) العلق: ٥.

ولكن بقَدْر التفوق المذهل في انطلاق المادة ـ في عصرنا هذا ـ نرى التخلف المزري في تقدير قيمةِ الإنسان، والمحافظة على حقوقه وكرامته.

أَفْلَتَتْ نتائج العلم، ولم يستطع أحد ـ ممَّن فُتنوا بهذه النتائج ـ أن يسيطر عليها.

وغدا الإنسانُ بها مُهدَّدا في يومه، خائفاً من غده.

وَفُقِدَ التوازن، واختفى العدل.

وتحوَّلت أقواتُ الجياع إلى بطون المدافع.

وأحرز الإنسان من قوة الحديد وبأسه ما يظن به أنه قادر على سحق الأرض وما عليها.

وأذكرُ أنَّ رئيسَ أَحَدِ الكُتلتين، قال ـ في حِدَّةٍ ـ للآخر:

"عندنا من الأسلحة ما يدمر الأرض كلها".

فقال له الآخر: "ونحن عندنا ما يدمرها أربعين مرة".

فقلتُ في نفسي: "يا الله ! عندما يطغي الإنسان ويستبد، لا يقف بطغيانه عند نفسه، بل يمتد طغيانه حتى يصل إلى هذا الحد، الذي يتباهى فيه أنه يدمر الأرض ـ بما يملك من قوة ـ أربعين مرَّة".

هذا السُّعار في إحراز القوة، والتهديد بها، والتفاخر والتعالي أَنْسَى هذا القائل أنَّ تسعاً وثلاثين مرَّة لا حاجة إليه فيها، ما دامت الأرض قد دُمِّرت.

والناس جميعاً يعلمون أنَّ القوم الذين أحرزوا هذه القوة مغتصبين لأقواتِ شعوبٍ وأُمَمٍ.

وإذا كانت أقواتُ الجياع قد حُشرت في بطون المدافع، وفي إعداد أسلحة الخراب الفاجع والدمار الشامل.

فإنَّ الذين تطلَّعوا إلى الغد المنشود ـ بعد ويلاتٍ وأزمات، في حروب باردة وساخنة ـ لم يلبثوا أن رأوا أن التخلص من أسلحة الدمار الشامل يخضع لموازين الأقوياء من أصحاب المصالح، الذين لا يرون للشعوب المطحونة شأناً، ولا يُقيمون لمصالحها وَزْناً.

كم أنفقوا في إعداد أسلحة الدمار الشامل ؟

وكم يُنفقون في التخلص منها، أو من نفاياتها ؟

وكم شَقِيَ الإنسان، ويشقى في الأحوال كلها ؟

ذاك ما كان من نتائج العلم حين رأى الإنسانُ نفسه قد استغنى به.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[1]

طَغَى بالعلم، واستبدَّ بنتائجه.

وضاع الأمن والسِّلمُ من حياة الإنسان، وظُلِمَت كلماتُه، وأُصيب منتظروه بالإحباط واليأس، حين رأوا أنَّ المنظمات العالمية ـ مع ضرورتها ـ لا يمكن أن تُحقق للناس أَمْنا، أو تقيم في العالم سِلْماً.

وغاب عن هؤلاء أنَّ الأمن ـ في حقيقته ـ يرتبط بصفات النفس.

والسِّلْمَ ـ في جوهره ـ يرتكن إلى القيم والأخلاق.

فلابُدَّ من الرجوع إلى الإنسان الذي أُنْزِلَ من أجله القرآن؛ لمعرفة ما

---

(1) العلق: ٦، ٧.

يسيطر على فكره من مذاهب، وما يتحكم في سلوكه من دوافع، وما يُحدِّد سَعيه من غايةٍ؛ حتى يستعمل بأس الحديد في نَصْرِ الله، لا فيما تفرضه شهوته وهواه.

وقد غاب عن الإنسان علاج ما يكون فيه من بغي وطغيان.

ووقف في علاج ذلك عند حلولٍ مؤقَّتة، لا يلبث أن يرى قصورها في تحقيق أَمْنٍ أو سِلْمٍ، كالمنافسة في المزيد من إحراز القوة والبأس.

وهو تنافس مسعور، لا يقف عند حَدٍّ ما لم تحكمه ضوابط النفس، وتحرسه حصون الحق والعدل لأُمَّةٍ تُخضع قوتها لنصرة الله ورسله؛ حتى تجعل العدل ميزاناً بين الخَلق. ولن يكون ذلك إذا فرَّط الناسُ في اعتقاد ما يعالج به طغيان الإنسان.

ومَن يتدبر المناسبة بين قوله تعالى:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾

عرف السبيل إلى معالجة الطغيان عقيدة وإيماناً.

والإيمان نيَّة، وقول، وعمل.

عملٌ يُصان به الاعتقاد، وتُحرس ضوابطه وحدوده.

العلاج لطغيان الإنسان ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾.

اليقين بالعَوْدِ إلى الله، والحساب بين يديه.

ذاك ما يَئِدُ الجريمةَ المُبيَّتة في نفس صاحبها قبل أن تُولد.

ويجعل الإنسان ـ خَوْفاً من ربِّه ـ يُقدِّمُ خيرَه، ويكف شرَّه.

وما يجعله يُخضِعُ بَأْسَ الحديد لما يُرضِي الله وينصره، لا لما يُغضبه ويُسخطه.

وأيُّ تفريطٍ في إقامة العدل والقيام بالقسط، معلوم لله، الذي قال:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

فالعدل لا تُحدِّده أهواءُ الناس ولا شهواتُهم..

ولا يُترك تحديده لمآربهم، التي ترتبط كثيراً بمنافعهم.

وإنَّما هو مُحَدَّد من عند خَالِقهم جميعاً ورازقهم.

والذي لا تغيب حقيقته عن علمهم وفطرتهم.

ومن أجل إقامة العدل، وحراسةِ موازينه، أُنزل الحديد فيه بَأْسٌ شديد، ومنافعُ للناس؛ ليعلم موقف الناس من هذه القضية، التي تتصل ـ كُلَّ الاتصال ـ بسلامهم وأَمْنهم.

إذْ لا سلامَ بلا عَدْلٍ، ولا أَمْنَ بلا إقرارِ حَقٍّ.

والحديدُ ـ في بأسه وقوَّته ـ مُتاحٌ للناس جميعاً.

وهم ـ جميعاً ـ مُمْتَحَنُون، وإلى الله جميعاً راجعون.

وما بأيدي الناس هالكٌ، وهم هالكون.

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.[1]

---

(1) القصص: ٨٨.

وهذه الحقيقة ـ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إليه لا إلى غيره ـ كافية في رَدْعِ الإنسان في ذاته، إنْ هُو آمن بها وأيقن.

ولكن، هل كل الناس بها مؤمنون حتى نبتغي الأمن والسلام في الإيمان بها، والعمل بمقتضاها ؟

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.[1]

من هُنا يعلمنا القرآن أنَّ الدَّفْعَ سُنَّةٌ من سُنن الله، به يُردَعُ الشر، ويُحسَمُ الفساد.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾.[2]

من هُنا لا تجد فطرةَ الناس ـ في أيِّ مكانٍ ـ تُنكر على أحدٍ أن تكون له قوَّته وعتادُه، ولكن الذي يُنكَر هو: كيف تُستعمل القُوَّة ؟

وإذا كان أكثر الناس لا يؤمن بالعَوْد إلى الله، وإذا آمن لا يعمل بمقتضي إيمانه، فما السبيل لرَدْعِ البغي والطغيان ؟

السبيل ـ مع التذكير بالرجوع إلى الله، والحساب بين يديه ـ هو الإعداد للقيام بالدَّفْعِ كما أمر الله، وكما هو قائم في كل جزئية من جُزْئيَّات الحياة.

والذين يُنَحّون هذا الدَّفْع من تقديرهم، ويظنون ـ واهِمين ـ أنَّ

---

(1) يوسف: ١٠٣.

(2) البقرة: ٢٥١.

السَّلامَ والأَمْنَ يتحقق بدونه لا كما شرع الله، يخطئون في حقِّ الأمن والسَّلام، كما يخطئون في حقِّ أنفسهم.

ولذا أمر الله بإعداد القوَّة العادلة، التي تخضع ـ خضوعاً كاملاً ـ لمرضاة الله، والاستجابة لأمره، في قوله:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾.[1]

وإعداد القوة التي أمر الله بها ـ كما نرى ـ ليس فيها مجال لاتِّباع الهوى، فهي قوة يُرْهَبُ بها عدوُّ الله أوَّلاً.

فإنَّ عداوتهم ليست هي الأصل في إعداد القوة، وإنما الأصل في ذلك أن عداوتنا تَبَعٌ، فمَن عادى الله عاديناه.

وتلك ـ حين تُنْصَفُ موضوعياً ـ يُعلَمُ منها أنَّ ذلك في مصلحة الإنسان حيث كان؛ لأنَّ نَصْرَ الله نَصْرٌ لحقوق الإنسان، وَبِرٌّ به، وعِصمةٌ له من البغي والفساد.

ولكن المفاهيم ـ في كثير ـ ظُلمت، كما ظُلم مفهومُ (الأمن) و(السَّلام).

ومن الواضح البَيِّن أنَّ الله قد قيَّد نَصْرَ من ينصره بقوله:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]

---

(1) الأنفال: ٦٠.

(2) الحج: ٤٠.

فمَن نصر الله في نفسه، نصره ربُّه.

بل قال عمَّن ينصرهم ـ وقد فرض ذلك عليهم ـ:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.[1]

فمَن ينصرهم الله عليهم ضريبة لابُدَّ أن يقوموا بأدائها، وإلاَّ جُرِّدوا من نَصْرهم.

ولم تكن العاقبة لهم ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

وهي لن تبقى وتدوم إلاَّ لمن دفع ضريبة النصر والتمكين في الأرض.

إقامة الصلاة: ولا تَسَلْ عمَّا تؤدِّيه في حياة الناس من طُهْرٍ، أي طُهر.

وإيتاء الزكاة: ولا يخفى ما فيها من زكاةٍ وطُهر، وما تحققه من ترابط وبِرٍّ.

والأمر بالمعروف: وفي المعروف برٌّ بالناس جميعاً وخير.

والنهي عن المنكر: وفيه ما فيه من حَسْمٍ لأسباب الفساد والشر.

تلك ضريبة من يُمَكَّنُ لهم بالنصر.

ومداولةُ الأيام بين الناس دوَّارةٌ، لا تَدَع من يبغي الفساد في الأرض دون رَدْعٍ، ولا تَدَع مَن يتطاول بالنعمة ويختال بها، دونَ أخذٍ أو خَسْفٍ.

ولا تترك من يقول: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[2] ـ تطاوُلاً على الخَلق ـ

---

(1) الحج: ٤١.

(2) النازعات: ٢٤.

دونَ أن يُؤخَذَ بذنبه، ويُهلك بمعصيته.

ليُوقِنَ النَّاسُ أنَّ عقيدة ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾[1] ليست عقيدة مجردة عن قوة، وليست مجرَّد بلا غ للناس، بلا شهود واقتدار.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢ ﴾.[2]

أرأيت على مَن تكون الخسارة، خسارة هؤلاء الذين لا يوقنون أنهم إلى ربهم راجعون ؟

إن خَسَارتهم على أنفسهم.

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢ ﴾[3]

ولأترك لك أن تتدبر بقلبك حكمةَ الجمع بين قوله: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ وقوله: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.

لتكون لك مع علاج البغي والطغيان وقفة رُشد وتدبر.

تحتاج منك ـ أوَّلاً ـ أن تحقق هذا العلاج في نفسك، قبل أن تنشده في غيرك؛ فإنَّ علاجَ أمرك كله فيما جمعه "لقمانُ" لابنه في كلمة،

---

(1) العلق: ٨.

(2) الأنعام: ١٢.

(3) الأنعام: ١٢.

حيث قال:

« اثنان لا تنسهما قط: الله، والدار الآخرة ».

فإنَّ هذا النسيان هو الذي دمَّر حياةَ الناس، وأشاع فيهم البغي والفساد.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.[1]

ذاك ما تعلَّمناه من القرآن.

كما تعلَّمنا كيف تكون مداولة الأيام بين الناس عدلاً قائماً على علمٍ وقُدره.

علم مَن أحاط بكُلِّ شيءٍ علماً.

وقدرة مَن لا يُعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض .. إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً.

مُداولةُ الأيام بين الناس سُنَّةٌ من سُنن الله..

وهي آية من آياته، مُعبِّرة عن عِلمه وقُدرته.

فمَن أحبَّ أن تكون الأيام له لا عليه، فليعرف السبيل؛ فإنَّ سُنَنَ الله لا تُجامل ولا تُحابي، ولا تتبدل ولا تتحول.

ولا صلة لهذه السُّنة من سُنن الله لما يتمناه الإنسانُ أو يرجوه، دون عمل وأخذٍ بالأسباب التي بيَّنها الله، وأرسل من أجلها الرسلَ، وأنزل

---

(1) الحشر: ١٩.

الكتابَ.

وقال سبحانه:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾.(1)

تعلّمنا من القرآن:

كيف يكون التعاون على البرّ.

إذ عرفنا أن البرَّ ليس مجرد عطفٍ على محتاج أو فقير، وكفى ..

وإنّما البرُّ ـ الذي يُحقق غايته في توازن الحياة ـ هو ما بيَّنه القرآن، ووصف القائمين به، في قوله تعالى:

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.(2)

فالبرُّ ليس صفةً للنفس تنعزل بها عن شئون الحياة.

---

(1) النساء: ١٢٣، ١٢٤.

(2) البقرة: ١٧٧.

وإنما البرُّ - وهو يقترن بالتقوى - معنىً يشمل جميعَ ما يتحقق به صلاحُ الحياة.

ولذا جاء الأمر من عند الله بالتعاون على البرِّ مقترناً بالتقوى، في قوله تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾.[1]

هكذا جاء الأمر والنهيُ من الله للذين آمنوا.

الأمرُ بالتعاون على ما لا تصلح الحياة إلاَّ به ﴿ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾

والنهي عن كل ما يُفسد شأنها، ويدمر روابطها ﴿ ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾

وما أمر الله - تعالى - بالتعاون على تحقيقه يبرُّ بجميع الأحوال، ولا يخُصُّ جانباً من الحياة دون جانب.

والبرُّ اسمٌ جامع لكل طاعةٍ لله وللرسول. شامل لأعمال الخير المُقرِّبة إلى الله، الموجبة للثواب، المؤدِّية إلى الجنة.

فلا انعزالَ في أداءِ الخيرِ والكَفِّ عن الشَّر، بل عزمٌ وصِدقٌ وصَبرٌ.

ولا شُحَّ في إحسانٍ أو صدقة، بل إعطاءٌ في رغبةٍ وحُبّ.

ولا تقاعُدَ عن إنصافِ مظلومٍ ومنع ظالم، بل جهادٌ في رَدْعِ هذا، ونَصْرِ ذاك، كما أمر رسول الله ﷺ بقوله: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ».

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا

---

(1) المائدة: ٢.

كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟

قَالَ: « تَحْجُزُهُ ـ أَوْ تَمْنَعُهُ ـ مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ ».[1]

ولا نقضَ لعهد ولا غدر، بل وفاء وصِدق في كل عهد وميثاق، سواء كان بين العبد وربِّه، أو بينه وبين الناس.

ومن قصَر البرَّ على ما تهواه نفسه من أمر الدِّين، لم يسلم من اتِّباع خطوات الشيطان فيما يدعو إليه ويأمر به.

والله يأمر عباده المؤمنين به المصدِّقين برسوله أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره ما استطاعوا، وترك جميع زواجره.

حيث قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.[2]

﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ﴾ يعني الإسلام ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ أي: اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البرِّ، كما قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ أي: اعملوا بالطاعات، واجتنبوا

---

(1) البخاري: كتاب الإكراه.

(2) البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩.

ما يأمركم به الشيطانُ؛ فإنه يأمر بالسُّوء والفحشاء

﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾[1]

ولهذا قال الله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٨ ﴾

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي: عدلتم عن الحقِّ بعدما قامت عليكم الحُجَج ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ في انتقامه، لا يفوته هاربٌ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أمره ونهيه.

فلا مجالَ ـ بعد هذا البيان ـ لقَصْر البرِّ على ما تهواه النفس أو ترضاه؛ فإنَّما البرُّ في طاعة الله، ولو كان فيه ما تكرهه النفس أو تأباه.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦ ﴾.[2]

ولذا جاء في آية "البرّ":

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾[3]

فلم يكن البرُّ مجرَّد ركعات تُستروح بها النفسُ.

---

(1) فاطر: ٦.

(2) البقرة: ٢١٦.

(3) البقرة: ١٧٧.

وإنَّما قد يكون البرُّ في ميدانٍ تُباعُ فيه النفس، وهي لا تُباع إلاَّ لله.

وسِلْعَةُ الله غالية « أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّة »[1]

وذاك ثمنُها:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾.[2]

يُخبر الله تعالى أنَّه عَاوَضَ من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم ـ إذا بذلوها في سبيله ـ بالجنة.

وهذا من فضله وكَرمه وإحسانه؛ فإنه قَبِلَ العِوَضَ عمَّا يملكه بما تفضَّل به على عبيده المطيعين له.

ولهذا قال الحسنُ البصري ـ رحمه الله ـ:

« بَايَعَهُم اللهُ فَأَغْلَى ثَمَنَهُم ».

قال عبدُ الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت.

قال ﷺ: « اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

---

(1) الترمذي: كتاب صفة القيامة، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ أَبِى النَّضْرِ.

(2) التوبة: ١١١.

واشترطُ لنفس أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ».

قالوا: فمَا لنَا إذَا فعلنا ذلك ؟

قال: « الجنَّة ».

قالوا: رَبحَ البيعُ. لا نقيل ولا نستقيل.

❊ ❊ ❊

القرآن حُفظ من أجل الإنسان
وما حُفظ للإنسان
لا يحفظ الإنسان إلا به

القرآنُ حُفِظَ للإنسان
وما حُفِظَ للإنسان لا يُحفَظُ الإنسانُ إلاَّ به

إنَّ من رحمة الله بخَلْقه أنَّ ما لا تقوم حياتهم إلاَّ به، قد ضَمِنَ حِفظه لهم، ولم يترك حِفظه لغيره.

حياة الناس لا تكون إلاَّ بالماء، وقد جعل الله من الماء كُلَّ شيءٍ حي.

ضَمِنَ الله حِفظه، ولم يدع ذلك لأحدٍ سواه.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.[1]

إنَّ ما لا تقوم الحياةُ إلاَّ به ـ من ماديَّات الحياة أو معنوياتها ـ قد تكفَّل الله به.

ولولا ذلك لهلك الناس، وبطلت الحياة.

ماذا تكون حالة الناس لو كان الرزقُ بأيديهم، أو تُرِكَ تدبير أمر الخَلق لهم ؟!

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾.[2]

فالماء والهواء، والأرض والسماء، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزرع والثمار، ضرورات لحياة الناس، تكفَّل الله بحِفظها؛ لأنَّ حياة

---

(1) الواقعة: ٦٨ـ٧٠.

(2) الإسراء: ١٠٠.

الناس ـ في دُنياهم ـ لا تقومُ ولا تدوم إلى أَجَلٍ إلاَّ بها.

ومَن تدبر القرآنَ في حياة الإنسان، وعرف حقيقة الحياة، عرف أنَّ الله ـ الذي جعل من الماء كُلَّ شيءٍ حي ـ قد جعل القرآن نُوراً تهتدي به وتستقيم الحياة.

وكثيراً ما يتجاوَرُ الحديثُ عن "الماءِ" مع الحديثِ عن "القرآنِ" في آياتِ الذِّكْرِ الحكيم، ونرى الرسولَ ﷺ يقولُ: « مثلُ ما بعثني الله به من الهُدى والعلم، كمثلِ غَيْثٍ أصاب أرضاً... »[1]

فإنَّ في الماء حياة، وفي القرآن حياة، أيّ حياة.

ولكن شتَّان ما بين حياةٍ وحياة.

حياة مؤقتة لا تدوم، وحياة دائمة لا تنقطع.

حاجة الإنسان إلى الماء في دُنياه.

ولا حاجةَ له فيه إذا فارقَ الحياة.

ولكن صلة القرآن بالإنسان مُمتدة، لا تنقطع بفِراق دُنياه، في موت أو بعث، أو حساب وجزاء.

الإنسانُ في حاجة إلى مَن يهديه سواء السبيل، والقرآن هُدىً للناس يهدي ـ في كُلِّ شأنٍ ـ للتي هي أقوم.

فإذا مات الإنسانُ لازَمَهُ القرآن، حُجَّة له أو عليه.

فقد روى مسلمٌ، عن أَبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي ـ رضي الله عنه ـ قَالَ:

---

(1) البخاري: كتاب العلم.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ.... »[1]

وروى مسلمٌ، عن النَّواس بن سمعان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال:

سمعت رسولَ الله يَقُولُ: « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ ـ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ ـ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ.

وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ:

كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ[٢]

أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ[٣]

أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[٤]

تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[٥]

القرآنُ ـ إذن ـ حاضرٌ مع الإنسان في أصعب المواقف وأشدِّها.

وهو وَفِيٌّ لأصحابه، لا يتخلَّى عنهم في هدايةٍ أو شفاعة.

وبه ترتفع منزلتُهم، ويعلو شأنُهم.

روى الترمذيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رضي الله عنهما ـ

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا

---

(1) مسلم: كتاب صلاة المسافرين.

(٢) الْغَمَامَة وَالْغَيَايَة: كُلّ شَيْء أَظَلَّ الإِنْسَان فَوْق رَأْسه، مِنْ سَحَابَة وَغَبَرَة وَغَيْرهمَا. قَالَ الْعُلَمَاء: الْمُرَاد أَنَّ ثَوَابهمَا يَأْتِي كَغَمَامَتَيْنِ.

(٣) بِفَتْحِ الرَّاء وَإِسْكَانهَا، أَيْ: ضِيَاء وَنُور.

(٤) الْفِرْقَان وَالْحِزْقَان: مَعْنَاهُمَا وَاحِد، وَهُمَا قَطِيعَانِ وَجَمَاعَتَانِ.

(٥) مسلم: كتاب صلاة المسافرين.

كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا »[1]

وهذا الاستحضار أو الحضورُ مَا كَانَ يغيبُ عن تقدير الصحابة الكرام وهم يعملون بالقرآن.

فنرى أبا الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: « أخافُ أن يُقالَ لي يومَ القيامة: أعلمتَ أم جهلتَ ؟ فأقول: علمتُ، فلا تبقى آيةٌ في كتاب الله ـ آمرةٌ أو زاجرةٌ ـ إلاَّ وتسألني الآمرةُ: هل ائْتَمَرْتَ ؟ وتسألني الزاجرةُ: هل ازْدَجَرْتَ ؟ فأعوذُ بالله من علمٍ لا ينفعُ، ومن دعاءٍ لا يُسمَع »

هكذا يأتي القرآنُ يوم القيامة ـ أو يُؤْتَى به ـ ليكون حجةً للإنسان أو عليه.

ومن هُنا تتَّضح حاجةُ الإنسان إلى القرآنِ في حياةٍ أو موت.

حيث لا تتوقَّف هدايته، ولا تذهب بركته، ولا تنقطع حُجَّته.

وممَّا يلفت النظر وَصْفُ القرآن بما وُصِفَ به الماءُ؛ لبيان ما فيه من وفْرَةِ خيرٍ وعطاء.

وُصِفَ بقوله: ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ في أربعةِ مواضع، جاء الوصفُ بها ـ هكذا ـ مرفوعاً دلالة ثباتِ البركة ودوامِها.

موضعين في سورة "الأنعام":

﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.[2]

---

(1) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(2) الأنعام: ٩٢.

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.[1]

وفي سورة "الأنبياء":

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.[2]

وفي سورة "ص":

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.[3]

أمَّا الماءُ فوُصِفَ بقوله: ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ في موضعٍ واحد. جاء الوصفُ فيه منصوباً في سورة "ق":

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾.[4]

وقد رأينا كيف تمتدُّ بركة القرآن مع مَن ارتوى به ولا تنقطع.

وكيف يُرحَمُ به من اتَّبعه واهتدى بهداه، ولا يضل السبيل.

وهو يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم.

وعندما تتوفر أسبابُ الحياة للناس ينقطع العُذرُ، وتبطل الحُجَّة لمن رَغِبَ عنها.

لا عُذْرَ لِمَنْ مات ظَمَأً ـ والماءُ محمولٌ على ظهره.

ولا حُجَّة لمن ضَلَّ السبيلَ، وأمامه هُدىً ونور.

---

(1) الأنعام: ١٥٥.

(2) الأنبياء: ٥٠.

(3) ص: ٢٩.

(4) ق: ٩.

وهداية الله لخَلقه قد لازمت الإنسانَ من بدايته..

فسبحانَ مَن أعطى كُلَّ شيء خَلقه ثم هدى !

وعرف الإنسانُ بهداية ربِّه عاقبةَ من اتَّبع هُداه ومَن أعرض عن ذكره.

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.[1]

ومن المعلوم أن للقرآن أسماءً كثيرة، منها:

القرآن، والكتاب، والهُدى، والنور، والشفاء...

أسماءٌ كثيرة وصِفات، قد ذُكرت في القرآن في موضعها ومنها (الذِّكْرُ) وقد ورد في القرآن الكريم بصيغٍ متنوعة، في بضعٍ وخمسين موضعاً. وجاء مُقترناً بحِفظ القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.[2]

ولا تخفى دلالة ذلك على كل مستبصر مُستنير.

حُفِظَ الذِّكرُ لمصلحة الإنسان لهدايته ـ في كل شأن ـ وتذكرته.

وفي قوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ تأكيدٌ لحفظ القرآن، أيّ تأكيد.

ولم يكن حِفْظُه ـ على النحو الذي حُفِظَ به ـ بمقدورٍ لأحدٍ إلا الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ.

---

(1) طه: ١٢٣، ١٢٤.

(2) الحجر: ٩.

والروح الأمين ينزل بالقرآن على قلب الرسول ﷺ، فيحفظ ما يُلْقَى عليه، ما كان مقدوراً للرسول ﷺ أن يحفظه إلاّ بإحفاظ الله له، ولا كان بمستطيعٍ أن يعرف موضعَ الآية ـ من أيِّ سورةٍ ـ إلاّ بتعليم الله له.

وقد كان من حِرصه ﷺ على حِفظ ما يُلْقَى عليه، أنَّه كان يُبادر إلى أَخْذه، ويُسابق الْمَلك في قراءته.

فأمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا جاءه الْمَلك بالوحي ـ أن يستمع له.

وتكفّل الله له أن يجمعه في صَدره، وأن يُيسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يُبيِّنه له ويُفسّره ويُوضّحه.

حيث قال ـ جَلَّ شأنُه ـ:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.[1]

فكان حِفْظُ القرآن ـ على النحو الذي نَزَلَ به ـ دلالةً تَحُثُّ الإنسان على حُسنِ تدبره والعمل به.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2]

القرآنُ محفوظٌ في الأرض وفي السماوات.

---

(1) القيامة: ١٦ـ ١٩.

(2) العنكبوت: ٤٨.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾.[1]

محفوظٌ في جميع مراحل تنزيله:

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢ ﴾.[2]

حين بَعَثَ الله رسوله ﷺ، وأنزل عليه القرآن « كان من حِفظه له أنَّ السماء مُلِئَتْ حرساً شديداً، وحُفظت من سائر أرجائها، وطُردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعُدُ فيها قبل ذلك؛ لئلاَّ يسترقوا شيئاً من القرآن، فيُلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمرُ ويختلط، ولا يدري مَن الصَّادق .. وهذا من لُطف الله ـ تعالى ـ بخَلقه، ورحمتهِ بعباده، وحِفظه لكتابه العزيز ».

ولهذا قال الجنُّ: ﴿ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡـَٰٔنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩ ﴾.[3]

---

(1) الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠ .

(2) الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢.

(3) الجن: ٨، ٩.

أي: مَن يَرُومُ أن يسترقَ السَّمعَ اليوم يَجِدْ له شهاباً مرصداً له، لا يتخطَّاه ولا يتعدَّاه. بل يمحقه ويهلكه.

روى الإمام أحمدُ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

((كَانَ الْجِنُّ يَسْمَعُونَ الْوَحْيَ، فَيَسْتَمِعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا، وَمَا زَادُوهُ بَاطِلاً.

وَكَانَتْ النُّجُومُ لا يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَحَدُهُمْ لا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلاَّ رُمِيَ بِشِهَابٍ يُحْرِقُ مَا أَصَابَ.

فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، فَقَالَ: مَا هَذَا إِلاَّ مِنْ أَمْرٍ قَدْ حَدَثَ.

فَبَثَّ جُنُودَهُ، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةَ.

فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ : هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الأَرْضِ)).[1]

القرآنُ محفوظٌ بحِفظ الله، في جميع مراحل تنزيله.

فالنَّازِلُ به من السماء هو الرُّوحُ الأمين.

والسَّماءُ قد حُفِظَتْ من استراقِ الشياطين.

والمُنَزَّل عليه هو الصَّادقُ الأمين، المبعوثُ رحمةً للعالمين.

وجبريلُ عليه السلام ـ وهو أمين الوحي لجميع الأنبياء ـ لا ينزل كيف شاءَ وأنَّى شاء، وإنما يتنزل بأمر، ويُحْبَسُ عن النزول بأمر.

احتبس جبريلُ عن النبي ﷺ، فوجد رسولُ الله ﷺ من ذلك وَحَزِنَ.

وقد روى الإمامُ أحمد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

---

(1) رواه أحمد في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنَّفه.

قال رسول الله ﷺ لجبريل: « ما مَنَعَكَ أن تزورنا أكثر مما تزورنا » ؟

فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾[1] فكان ذلك الجوابُ لمحمد ﷺ.

وقد احتبس جبريلُ عن النبي ﷺ حين سألوه في أمر الرُّوحِ، وأصحاب الكهف، وذي القَرنَيْنِ.

فقال ﷺ: « أُخبركم غداً » ولم يقل: إن شاء الله.

حتى شقَّ على النبي ﷺ، ثم نزل بعد أيام.

فقال له رسول الله ﷺ: « أبطأتَ عليَّ حتى ساءني واشتَقْتُ إليك »

فقال له جبريلُ: إني كنتُ أشوق، ولكني عبدٌ مأمور، إذا بُعثت نزلتُ، وإذا حُبستُ احتبست.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾

وأنزل: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[2]

فلا جبريلُ الأمين عليه السلام بمستطيعٍ أن يتنزَّل إلاَّ حين يُؤمَر.

ولا الرسولُ ﷺ بمجيبٍ عمَّا سُئِلَ حتَّى يُخبَر.

وما يُتْلَى على الرسول ﷺ ما كان الرسولُ - من قبلُ - يَدريه أو يعرف ما يُشرَعُ فيه.

---

(1) مريم: ٦٤.

(2) الضحى: ١ـ ٣.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.(1)

وقد كان الكُفّار ـ من مُشْرِكي قريشٍ ـ إذا قرأ الرسولُ ﷺ عليهم كتابَ الله وَحُجَجَهُ الواضحة، قالوا له:

﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ ﴾ أي: رُدَّ هذا، وجِئْنَا بغيره من نَمَطٍ آخر، أو بَدِّله إلى وَضْعٍ آخر.

فقال الله ـ تعالى ـ لنبيِّه ﷺ:

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ﴾

أي: ليس هذا إليَّ، إنّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسولٌ مُبَلِّغٌ عن الله.

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.(2)

ما كان رسولُ الله ﷺ يُتَّهَمُ بالكذب بين قومه، وهم الذين لقَّبوه

---

(1) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(2) يونس: ١٥، ١٦.

بـ « الصَّادق الأمين » قبل بَعثته.

ولهذا لما سأل هرقلُ، مَلِكُ الرُّومِ أبا سُفيان ومَن معه، فيما سأله من صفةِ النبي ﷺ.

قائلاً له: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟

قال أبو سفيان: لا.

وكان أبو سفيان ـ إذْ ذاك ـ رأسَ الكَفَرَةِ، وزعيمَ المشركين، ومع هذا اعترفَ بالحقِّ !

فقال له هرقل: فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ »[1]

وقال "جعفرُ بن أبي طالب" للنجاشيِّ مَلِكِ الحبشة: « بَعَثَ اللّهُ فينا رسولاً نعرفُ صِدْقَه وَنَسَبَهُ وأمانَتَهُ. وقد كانت مُدَّةُ مُقامه ﷺ بين أظهُرنا ـ قبل النبوة ـ أربعين سنة ».

القرآنُ محفوظٌ بحِفظ الله، لا يُزادُ فيه ولا يُنْتَقَصُ منه.

ولو كان الرسولُ ﷺ مُفترياً على الله ـ كما يزعم الجاحدون ـ فَزَادَ في الرسالة، أو نَقَصَ منها، أو قال شيئاً من عند نفسِهِ، فنسبه إلى الله، وليس كذلك، لَعَاجَلْنَاهُ بالعقوبة.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ

---

(1) البخاري: كتاب بدء الوحي.

لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٧﴾﴾.[1]

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.[2]

القرآنُ الكريم قد حُفِظَ بحِفظ الله، وبقيَ عزيزاً لا يقتربُ الباطلُ من ساحته.

ومن عِزَّتِهِ أنَّك ترى الغالبَ مغلوباً أمام قوَّته، والمنتصِرَ منهزماً أمام حُجَّته.

وكَم هُزِمَ المسلمون، وانتصر القرآنُ.

وكَم نال العدوُّ من ديارهم، ولم يستطع مغالبةَ حَرْفٍ منه.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.[3]

وصدق اللهُ العظيم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[4]

فاللهُ ـ وحده ـ هو الحافظُ له من التبديل والتَّغيير.

ولو أُسْنِدَ الحِفظُ لغير الله، لَوَقَعَ فيه ما وَقَعَ في غيره من تبديل

---

(1) يونس: ١٧.

(2) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

(3) فصلت: ٤١، ٤٢.

(4) الحجر: ٩.

وتغيير.. وهذا من فضلِ الله ورحمته؛ لتبقى رسالةُ الرسل ـ جميعاً ـ محفوظةً بحِفظِ الله للعالمين.

تُعرَفُ منه كلمة الله لجميع المرسلين، وهو يقُصُّ على الناس نَبَأَهُم بالحقِّ، ولا يدع ذلك للمتقوِّلين.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[1].

حُفِظَ الذِّكْرُ بحِفظ الله للإنسان حيث كان.

وما حُفِظَ للإنسان ـ لهدايته في كُلِّ شأنٍ وتبصرته ـ لا يُحْفَظُ الإنسانُ ـ في دُنياه وأُخراه ـ إلاَّ باتِّباع هِدايته.

فإذا دعا القرآنُ إلى اعتصام المؤمنين ـ جميعاً ـ بحبل الله، ونهاهم عن الفرقة، في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[2]

فإنَّ حِفظهم من الفَشَلِ وذَهَابِ الرِّيح، متوقِّفٌ على اتِّباع ما أُمِرُوا به، واجتناب ما نُهوا عنه.

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[3]

ومَن تدبَّرَ قضيةَ الشرط والجزاء في القرآن، عَرَفَ أنَّ لكُلِّ عملٍ عاقبته وجزاءه، دُون عُسْرٍ أو تكلُّف.

---

(1) النمل: ٧٦، ٧٧.

(2) آل عمران: ١٠٣.

(3) الأنفال: ٤٦.

والقرآن كُلُّه تَرَى ذلك فيه ولو جاءت الآيةُ منه بأسلوبٍ خَبَريٍّ.

تقرأ ـ مَثَلاً ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝٣٠ ﴾[1]

والآيةُ ليس فيها أداة شرط وجزاء، فتحس منها برُوحِ الشرط والجزاء

مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً، ماذا يكون جزاؤه ؟

تُجيبك الآيةُ بالجزاء أبلغ ما يكون الجزاء.

وتقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ۝١٠٧ ﴾[2]، وقولَه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦ ﴾[3]

فلا يغيبُ عنكَ شرطُ هذا الجزاء.

﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ۝١٠٧ ﴾

شرطُه: إيمانٌ، وعملٌ صالح.

كما لا يغيبُ عنك شرطُ ما تُحقّق به المودَّةُ والمحبة، في قوله تعالى:

---

(1) الكهف: ٣٠.

(2) الكهف: ١٠٧.

(3) مريم: ٩٦.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾[1]

إنَّه الإيمانُ والعمل الصالح. ولا تُطلب المحبةُ والمودَّةُ إلاَّ بهما؛ فإنهما من الله، وما عند الله لا يُطْلَبُ إلاَّ بطاعته.

روى مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا، دَعَا جِبْرِيلَ.

فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا، فَأَحِبَّهُ.

قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا، فَأَحِبُّوهُ.

فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ.

قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ... »[2]

فذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

« وما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله، إلاَّ أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودَّتهم ورحمتهم ».

وكان عثمانُ بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ يقول: « ما مِن عبد يعملُ خيراً أو شرّاً إلاَّ كَسَاهُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ رِدَاءَ عمله ».

وعن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ قال:

---

(1) مريم: ٩٦.

(2) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب.

قال رجلٌ: « والله لأعبُدَنَّ الله عبادةً أُذْكَرُ بها ».

فكان لا يُرى في حينِ صلاةٍ إلاّ قائماً يُصلّي.

وكان أوَّلَ داخلٍ إلى المسجد، وآخرَ خارجٍ.

فمكث بذلك سبعةَ أشهر.

وكان لا يَمُرُّ على قومٍ إلاّ قالوا: انظروا إلى هذا الْمُرَائي.

فأقبل على نفسه. فقال: « لا أراني أُذْكَرُ إلاّ بشَرٍ ».

ولم يزد على العمل الذي كان يعمله.

فكان يمرُّ ـ بعدُ ـ بالقوم فيقولون: « رَحِمَ اللهُ فُلاناً الآن ».

وتلا الحسنُ قولَ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

وتستطيع أن تقرأ القرآن الكريم وأن تُحسن تدبره، لترى كيف يُحْفَظُ الإنسانُ بالقرآن، وهو يهتدي بهُداه.

فإنَّ القرآن الكريم يُعطيك نتائجَ الأعمال، وما يجب أن تكون عليه؛ لتحسن النتائج.

بل نراه ـ بفضل الله ورحمته ـ لا يذكر داءً في الناسِ، إلاّ ويبادر بذِكْرِ الدَّواءِ، دونَ إبطاء.

خُذْ مَثَلاً حديثَه عن أصحابِ الكَيْدِ والمكْرِ، وما يودُّونَه، وما يبيِّتُونه، لأهلِ الإيمان.

يذكر داءَهم، وما تطويه صدورُهم، ثم يذكر للمؤمنين مَا

يدفعون به كيدَهم، وما يحفظون به أنفسَهم.

وترى ذِكْرَ الدَّاءِ والدَّواء مُجملاً في آيةٍ واحدةٍ، بعد تفصيل وبيان:

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.[1]

واقرأ الآيتين قبل هذه الآية، من سورة "آل عمران" لترى كيف تُحفَظ بهداية القرآن، وأنت تستجيبُ لندائه، فتأتمر بما أُمِرْتَ به، وتجتنب ما نُهيتَ عنه.

❊ ❊ ❊

(1) آل عمران: ١٢٠.

التــداوي بالقــرآن

التداوي

بالقرآن

إنَّ في القرآن شفاء، وفي القرآن هُدىً ورحمة.

فما المراد بالشفاء ؟

هل هو شفاءٌ خاصٌ لِمَا في الصدور من شَكٍّ وريب ؟

أمْ شفاءٌ عام لِمَا في الصدور والأبدان ؟

نودُّ أن نقف من ذلك على أمور:

أولا: وردت كلمةُ " شفاء " في أربعة مواضع من القرآن الكريم:

*** في سورة "يونس" الآية ٥٧:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

*** وفي سورة "النَّحْل" الآية ٦٩:**

﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾.

*** وفي سورة "الإسراء" الآية ٨٢:**

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

*** وفي سورة "فُصِّلت" الآية ٤٤:**

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾.

ثانياً: الواضح من سياق الآية في سورة "النحل" أنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ هو العَسَل.

وفي الآيات الأخرى المراد به هو القرآن الكريم.

وقد جمع الرسول ﷺ بينهما في قوله: « عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْعَسَلِ، وَالْقُرْآنِ »[1]

فالقرآن شفاءٌ لما في الصدور، والعسل شفاءٌ من كل داء.

ثالثاً: للعلماء قولان في كون القرآن شفاء.

أحدهما- أنه شفاء للقلوب: بزوالِ الجهل عنها، وإزالة الريب.

شفاءٌ من الوسوسة، والقلق، والحَيرة، والهوى، والدَّنس، والطمع، والحسد، ونزغات الشياطين، وكافة العِلَل، التي تدمر المجتمعَ، وتذهب بأَمْنه وسلامته.

الثاني- شفاء من الأمراض الظَّاهرة بالرُّقَى والتعوذ.

فإنَّ القرآن شفاءٌ للأجسام إذا رُقِيَ عليها به.

كما تدل له قصة الذي رَقَى الرجل اللديغ بـ"الفاتحة" وهي صحيحة مشهورة.

ففي صحيح البخاري، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - رضي الله عنه -:

« أَنَّ رَهْطاً من أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ.

---

(1) ابن ماجة: كتاب الطب.

فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ.

فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ.

فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ، الَّذِينَ قَدْ نَزَلُوا بِكُمْ؛ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ.

فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، فَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ ؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَرَاقٍ.

وَلَكِنْ ـ وَاللَّهِ ـ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ، فَلَمْ تُضَيِّفُونَا.

فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً.

فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ.

فَانْطَلَقَ، فَجَعَلَ يَتْفُلُ وَيَقْرَأُ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢... ﴾[1]

حَتَّى لَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ[2] فَانْطَلَقَ يَمْشِي مَا بِهِ قَلَبَةٌ.

قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمُ: اقْسِمُوا.

فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لاَ تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا.

فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ.

---

(1) الفاتحة: ٢.

(2) أي: كأنما فُكَّ من حَبْلٍ كان مشدوداً به.

فَقَالَ: « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ أَصَبْتُمْ.. اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ [1] »[2]

فالأدعية المأثورة، وتلاوة الفاتحة والمعوذات، وغيرها من وسائل الفَرَج والبُرْء، بإذن الله.

رابعاً: لا يعني هذا الاكتفاء بالرُّقَى عن المُداوَاةِ والعلاجِ بالأدوية النَّاجِعَةِ؛ فذلك كُلُّه من الوسائل التي أَذِنَ الشَّرْعُ بها، بل وأوجَبَها؛ لِصيَانَةِ الحياة؛ فإنَّ الله الذي أنزل الداء قد أنزل معه الدواء، عرف ذلك مَن عرفه، وجهله من جهله، ولكنَّ الله لم يجعل شفاء عباده فيما حرَّمه عليهم.

خامساً: ما يفعله بعض العَوامُّ من إهمال علاج المريض المبتَلَى بمرض يحتاج إلى طبيب متخصص، سواء في الأمراض الباطنية أو الجراحية أو العصبية، أو نحو ذلك؛ اعتماداً على مجرد التلاوة، فهذا جهلٌ بحقائق الدِّين، وإهدارٌ لِقَدْرِ العلم الذي وهبه الله للإنسان، وعظْمة، ورفع شأن علمائه والعاملين به.

فإنَّ الأدوية المباحة شرعاً ـ حسبما يعرفه علماء الطب والمعالجة بما يناسب منها ـ من باب الأسباب التي أمرنا بالأخذ بها، ولا منافاة بينها وبين التوكل على الله.

سادساً: من الخير أن يجمع الإنسان بين الرُّقَى بالقرآن، والإخلاص

---

(1) أَي: اجْعَلُوا لِي مِنْهُ نَصِيبًا.

(2) البخاري: كتاب الطب.

في الدعاء، وبين التداوي بالأسباب العادية المناسبة للداء، بعد مراجعة المتخصصين في الطب ومعرفة الدواء.

ولكن لا يجوز للمريض أن يذهب إلى الكَهَنة، الذين يدَّعون معرفة المغيبات؛ ليعرف منهم مرضَه، أو يستحضرون الجنَّ؛ ليستعينوا بهم على ما يريدون، فإنَّ ذلك قد يفضي إلى الكُفْرِ والضلال.

سابعاً: مع الأخذ بالأسباب التي شرعها الله، على الإنسان أن يكون ـ دائماً ـ على يقينٍ بأنَّ الأمر كله لله، فلا يسند الفضل في شفائه إلا لله ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[1]

فإنَّ الأخذ بالأسباب طاعة..

وإبطالَ الأسباب ـ التي شرعها الله ـ معصية..

وإسنادَ الفضل لغير الله مفسدة ومضيعة..

وشُكْر الناس لا يُناقض ذلك؛ فإنَّ « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ »[2]

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.[3]

* * *

(1) الشعراء: ٨٠.

(2) الترمذي: كتاب البر والصلة، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(3) آل عمران: ١٠١.

الخاتمة

عود على بدء

الخاتمة

عَوْدٌ على بَدْءٍ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ [1]

إنَّ الترتيب الذي نراه في هذه الآيات من سورة "الرحمن" يُوحي بما يجب أن يكون، من جعل القرآن صلة بين الإنسان والرحمن..

فإنَّ كتابَ الله سببٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض.

لن تعمى الأبصارُ، ولن تضل القلوبُ، ولن تزلَّ الأقدام ما اعتصمت به.

« أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله ؟ »

قالوا: نعم.

قال: « فإنَّ هذا القرآن سببٌ، طَرَفُهُ بيد الله، وطَرَفُه بأيديكم.

فتمسكوا به؛ فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً ».

القرآن والإنسان.

القرآن يُرَى عملاً في سلوك الإنسان. من أجل ذلك جعل الله الأسوةَ بمَن « كانَ خُلُقُه القرآن ».

فإنَّ للإنسان شئونه وقضاياه..

وله مشاكله وحاجاته وضروراته..

وللشيطان مع الإنسان نزعات وفِتن ومُغريات.

وللنفس رغبات ونزوات وتطلعات.

---

(1) الرحمن: ١ ـ ٤.

وفي كل عصر قضايا ومستجدات.

وللإنسان أَجَلٌ محدود، مُسمًّى عند الله، لا عند الناس..

وللدنيا غرورُها وبلاؤها، وكُلُّ ما فيها إلى زوال.

وللآخرة زادُها وخيرها، وهي دارُ القَرار.

والإنسانُ ـ بأجله المحدود في الدنيا المدبرة ـ يقتربُ ـ في كل لحظةٍ ـ من آخِرةٍ مُقبلةٍ.

ولا شَكَّ أنَّ الإنسان أحوج ما يكون إلى دوامِ الصِّلة بالله، وهو راجع ـ لا محالة ـ إليه، ومحاسَب بين يديه.

والصلة بالله في الاعتصام بحبل الله، والاقتداء برسول الله.

والصلة بالله لدنيا الإنسان وأُخراه، ولا غنى له ـ في كل لحظةٍ ـ عن عَوْنٍ وتوفيقٍ من الله.

من هُنا رأينا رسولَ الله ﷺ يُجمل لنا ما يؤدِّيه القرآنُ لِمَن استمسك به، مِن عِصمةٍ ونَجَاةٍ، حيث قال ﷺ:

« أَلاَ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ ».

قيل: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ: « كِتَابُ اللَّهِ.

فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ.

وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ.

وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ..

هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلِ.

مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ.

وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ.

وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ.

وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ.

وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ.

وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ.

وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ.

وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ..

وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ.

..... مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ.

وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ.

وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ.

وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[1]

وَيَا لَهُ من فضلٍ، ويا لَها من رحمة، أن تكون الصِّلَةُ بين الخالق والمخلوق ـ بهذه الصفة ـ محفوظةً ميسرة.

ولا حُجَّةَ ولا معذرةَ لِمَنْ جاء القرآنُ يوم القيامة حُجَّةً عليه، لا له.

فإنَّ القرآن شافِعٌ مَاحِلٌ. مَنْ شَفَعَ القرآنُ له نَجا وفاز، ومَن كان

---

(1) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، وقال: هَذَا حَدِيثٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ. وَفِي الْحَارِثِ مَقَالٌ.

القرآن حُجَّةٌ عليه خَسِرَ وَهَلَكَ.

روى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال:

« القرآن شافع مشفعٌ، وماحلٌ[1] مصدق، من شفع له القرآن نجا، ومن محل به القرآنُ ـ يومَ القيامة ـ كَبَّهُ اللهُ لوجهه في النار، وأَحَقُّ مَن شَفَعَ له القرآنُ أهلُه وحَمَلَتُه ، وأوْلَى مَن مَحل به مَن عَدَلَ عنه وَضَيَّعه »

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال:

« إنَّ هذا القرآن شافعٌ مشفعٌ، مَن اتَّبَعَهُ قَادَهُ إلى الجنة، ومَن تَرَكَهُ ـ أَوْ أَعْرَضَ عنه ـ دح[2] في قفاه إلى النار »

فَطُوبَى لِمَنْ كان الكريمُ شفيعه.

وَوَيْلٌ لِمَنْ كان الذِّكْرُ الحكيمُ خصيمه.

طُوبى لقلوبٍ وبُيُوتٍ استنارت بنُور القرآن، فحفَّتها الملائكة، وغشيتها الرحمة.

وَوَيْلٌ لقلوبٍ وبيوتٍ خَلَتْ منه، فاستحوذ عليها الشياطين.

روى الترمذيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ »[3]

وقال رجلٌ لأبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ إخواناً لك من أهل

---

(1) الماحل: الخَصْمُ والمنازع.

(2) الدَّحُّ: الدَّفْعُ بعُنف.

(3) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الكُوفة يُقرئونك السلام، ويأمرونك أنْ تُوصيهم.

فقال: « أقرئهم السلامَ، ومُرْهُم فليُعطوا القرآنَ خَزَائِمَهُم[1]؛ فإنه يحملهم على القَصْدِ والسهولة، ويُجنِّبهم الجَوْرَ والخُزُونة ».

وذلك من فقه القرآن.

فإنَّ مِن فِقْهِ القرآنِ أن نعرفَ ما يحملنا القرآن عليه وما يهدينا إليه

يحملنا على العدل والقسط، ويُجنبنا الجور والظلم.

يحملنا على السهولة واليسر ويجنبنا الصعوبة والعُسر.

فعلى الإنسان أن يعدل به في كل شيء.

في القول: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ ﴾[2]

وفي الحُكم: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾[3]

وفي الشهادة: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾[4]

وفي الكتابة: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾[5]

في كل شيء يقودنا القرآن إلى العدل؛ حتى لا نظلم أنفسنا، أو نظلم غيرَنا، أو نظلم الحقيقةَ حيث كانت مع عدوٍّ أو صديقٍ، أو قريبٍ

---

(1) المعنى: يَنقادُونَ له، ويُطيعون أمرَه. والخزامة: حَلَقَةٌ من الشَّعْرِ تُوضَعُ في ثقب البعير، يُشد بها الزِّمام فَيَنْقَاد.

(2) الأنعام: ١٥٢.

(3) النساء: ٥٨.

(4) الطلاق: ٢.

(5) البقرة: ٢٨٢.

أو بعيد.

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسلَ بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾.[1]

والميزان هو العدل الذي ثبَّتَهُ الله في الأرض، ونَهَى أن يقعَ التجاوز فيه بقوله: ﴿ أَلا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

والله قد خلق السماوات والأرض بالحق والعدل؛ لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل.

ولهذا قال الله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

ليعلم أن القيامَ بالقسط وسطٌ، لا يقبل الطغيان أو الخسران.

إذ الطغيان فيه أخذُ الزائد.

والإخسار: إعطاء الناقص.

والقسط: التوسط بين الطرفين المذمومين.

ولهذا قال "القرطبي" في قوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي: افعلوه مستقيما بالعدل.

وقال قتادة في هذه الآية:

---

(1) الرحمن: ٧ ـ ٩.

« اعدل ـ يا ابن آدم ـ كما تُحبُّ أن يُعْدَلَ لك، وأَوْفِ كما تُحبُّ أن يُوفَّى لك؛ فإنَّ العدلَ صلاحُ الناس ».

وذاك ما أمر به الله، الذي خلق السماوات والأرض بالحق، وأنزل الكتاب والميزان.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ.... ﴾[1]

وقد أعان الناسَ على تحقيقه، فأنزل الحديدَ فيه بأس شديدٌ، ومنافع للناس؛ ليُقامَ العدل كما أمر الله، بلا طُغيان أو خسران.

وفي الحديد بأس شديد يُرْدَعُ به مَن بغى؛ حتى يفيء إلى أمر الله.

وفي الحديد منافعُ للناس لا تُصانُ إلاَّ بالعدل.

والعدل لا يتحقَّق إلاَّ بتغليب أمر الله على هوى النفس.

والإنسان مسئول عن صلاح نفسه قبل أن يُطْلَبَ منه إصلاح غيره.

« ومُعلِّم نفسه ومؤدِّبها أَحَقُّ بالاحترام من مُعَلِّمِ الناس ومؤدبهم ».

والإنسان الصالح تصلح به الأمور الفاسدة.

والإنسان الفاسد تفسد به الأمور الصالحة.

من هنا كان هدف القرآن هو الإنسان، الذي علَّمه الله ما لم يكن يعلم.

وتلك قضية الحياة « ابتلاءٌ.. وفتنةٌ.. وامتحانٌ » يُمْتَحَنُ الناسُ فيها بما أنزل الله من كتاب، وبما وضع من ميزان.

---

(1) النحل: ٩٠.

ليعلم الله مَن ينصره، ويُؤثر رضاه، ومَن يخذله، ويُؤثر هواه.

وفي نَصْرِ الله نَصْرٌ للفضائل والمكارم، التي تُصان بها كرامة الإنسان « والله غنيٌّ عن العالمين ».

ومن رحمته بخلقه أن جعل نَصْرَ العدل، والحق، والأمانة، والبرِّ، ومكارم الأخلاق، نَصْراً له؛ لينعم الناسُ بالسلام والأمن حقيقةً لا ادِّعاء، وهم يعبدون إلهاً واحداً، ولا يتخذ بعضُهم بعضاً أرباباً.

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.[1]

* * *

(1) الحديد: ٢٥.

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
* الرحمن. علّم القرآن. خَلَقَ الإنسان	٥
* حديث القرآن .. والإنسان	١١
* وِفَاقٌ لا اختلاف فيه	١٧
* الإنسان مخلوق مسئول	٣٥
* الأمانة التي حملها الإنسان	٤٩
* ظُلم الإنسان لنفسه	٦٥
* ماذا يعني قصص القرآن بالنسبة للإنسان ؟	٨١
* الإنسان عُلِّم بالقرآن ما لم يكن يعلم	٩٩
* القرآن حُفِظَ من أجل الإنسان ومَا حُفِظَ للإنسانِ لا يُحْفَظُ الإنسانُ إلاَّ به	١٣١
* التداوي بالقرآن	١٥١
* الخاتمة : عَوْدٌ على بَدءٍ	١٥٩

تَمَّ الكتاب بتوفيق الله